وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

فُلْك النور

رواية

فكري عمر

المسابقة الأدبية المركزية
الفائزون
2020 - 2019

رئيس مجلس الإدارة
د.أحمـــــد عـــــواض

أمين عام النشر
جـــرجس شـــكـــرى

رئيس الإدارة المركزية للشئون الثقافية
د. هـــــاني كـــمـــال

مدير عام النشر
عــبـدالحـافـظ بـخـيـت

الإشراف الفنى
أ.د.إسلام عبد الحميد زكي

• فُلك النور «رواية»
• فكري عمر

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2020م
19.5X13.5سم

• تصميم الغلاف: أحمد شوقي
• المراجعة اللغوية: صابر وهبي
• رقم الإيداع:
• الترقيم الدولي:
• المراسلات:
باسم/ مدير عام النشر
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين
سـامى- قصـر العيني
القاهرة-رقم بريدى 11561
ت:22794789

• جمع وإخراج:
وحـدة التجهيـزات

• الطباعة:
هـيـئـة الـكـتـاب

المتابعة والتنفيذ:
سحر عاصم

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٤١٠ / ٢٠٢٠

I. S. B. N 978 - 977 - 92 - 1761 - 1

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى المؤلف وتوجهه فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

فُلْك النـــور

-١-

سمع حفيف أقدام تقترب، لمَّا رفع وجهه رأى «ياسر الدسوقى» على بُعد خطوة منه بعيون مُحمرة غاضبة، ووجه مكفهر، لم تكن إلا لحظات من الصمت المترقب قبل أن تنهال عليه من فم «ياسر» بصقات مهينة من السب والإهانة، أجّت النار في رأسه، تخيَّل نفسه عارٍ من ملابسه، وأهله، وتاريخه، يطارده الأطفال بالحجارة، ويتطلع إليه الكبار من خصص الشبابيك، ومن وراء الأبواب المواربة؛ مباركين ذلك الهجوم بابتسامات مُشجّعة. تتطاير صيحات الاستغاثة من فمه، لكن أحدًا لا يسمعه، أو يرحمه، ليموتَ مغبونًا في النهاية، ثم تَعْثُر الشرطة على جثته الطافية في إحدى ترع الماء التي تسقي أراضي البلدة الزراعية.

لا يعرف «أكرم سليمان» لِمَ أراه عقله هذا المشهد الآن؟! ولا كيف وضع نفسه مكان المجنون الذى رآه وهو طفل صغير، وطارده مع المطاردين الصغار في قرية الكُور التي عاش فيها لعشر سنوات كاملة؟!

لم يتحمل مشهد المجنون أكثر من ذلك. انقض بكلتا يديه على عنق «ياسر الدسوقى» معرقلًا إياه، ليسقطا فوق البلاط، راح يكيل له ضربات شرسة بقبضتيه المضمومتين بينما لا يرد الآخر إلا بصرخات مُحشْرَجة من حنجرته المُتعبة، بزغ الذعر في وجه «ياسر» هذه المرة قويًا، لأول مرة لا ينتاب «أكرم» أية شفقة على الشيخ المتهاوي تحت فخذيه، يوجه له اللكمات، والصفعات، والشتائم التي تتناثر من فمه دون قدرة ولا رغبة في إيقافها.

جاء المُدرسون والمُدرسات سراعًا، تصرخ حناجرهم المجهدة: «قوم يا مجنون يا ابن الكلب». تشده خطاطيف أصابعهم من ظهره وياقته، لم يتراجع رغم الأيادى الكثيرة التي حالت بينه وبين جسد الرجل المرتجف ورأسه المدمى.

دفعهم «أكرم» بذراعيه: ليشق لنفسه طريقًا إلى الهدف مرة أخرى، لكن الأيادي تواطأت عليه ودفعته إلى الخارج، فطاح جسده كله على الأرض، أما رأسه فتلقاها مسند «دكة» خشبية بجوار الحائط. أحس بسخونة حارقة، ونظرة مرعوبة في الوجوه التي تحدق به، شَعَر بوجعٍ هائل تولَّد من الجبهة التي انتثرت منها دماء كثيرة، وضع يده على مصدر انبثاق الدم ليحجزه، أحدهم أتى له بخرقة قديمة وضعها هناك قبل أن يأتوا بالشاش والقطن والمطهر؛ ليعالجوا جروح «ياسر» وجروحه.

لقد سمع خلال فترة عمله القصيرة المتنقلة بين عدة مدارس بمؤامرات كثيرة من هذا النوع: يستفزونك إلى درجة الشطط، ثم يكيلون لك التهم؛ ليتخلصوا منك. حين شرب الماء المُثلج الذى قدمه له أحد العُمّال، ورأى الجميع يرمقونه شزرًا من بعيد تأكد أنه سقط في فخٍ لن ينجو منه بسهولة، دار رأسه هنا وهناك، طوّقه هواء ساخن، أخرج علبة مناديله وأخذ يمسح عَرَقه الغزير، يكز على أسنانه، يضم قبضتيه بقوة، ويفردهما ليستطيع التماسك في هذا الوقت الشائك، تذكر حكمة أُمه: «الناس شَرَ، كلما ابتعدت عنهم صرتَ في أمان. يا بني، اجعل من نفسك عبرة لنفسك فقط، ولا تلتفت لكل واحدٍ وتقول هذا لص، وهذا مرتشٍ، وهذا يهدد الطلاب بالدروس الخصوصية، وهذا يدبر المؤامرات للتسلية، والفتك بسمعة الناس».

وتذكّر أباه وهو يقول له أكثر من مرة: «انتبه! أنت لستَ حرًا لتتصرف بما يمليه عليكَ رأسك، أنت في وظيفة حكومية، والوسط الوظيفى قذر». ها هو الآن قد تورّط في مشكلةٍ كبيرةٍ، حَسْبَه أنه لم يكن مبادرًا بالخطأ، لو سكت عن الرد سيحترق من الغيظ، فسأل نفسه مستنكرًا: «هل يمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء أصلًا؟!».

أمام المحقق، الوكيل الذى كلَّفه مدير المدرسة بالتحقيق في المذكرة التي كتبها «ياسر الدسوقى» مُدرِّس أول الدراسات الاجتماعية، بشأن ما حدث مرفقًا معها «كشف حكيم» بالكدمات والقطع في جبهته ومؤخرة رأسه. رغم إصابة «أكرم سليمان» أيضًا بقطع في جبهته نتيجة اصطدامه بمسمار ناتئ في ظهر الدكة التي تلقته؛ فلم يكن يملك دليلًا واحدًا بحق أحدهم؛ ليثبت قصديته في الأذى. قال «أكرم»:

- إنهم يعتبرونني العُقلة في الزور، وقد خططوا لما حدث الآن بمهارة، وناري لم تنطفئ بعد، لو كنتُ قتلته منذ ساعة لاسترحت.

رد الوكيل بحدة ليوقف نزف الكلمات على لسان «أكرم»:

تمالك قليلًا، كل كلمة منك سأسجلها في التحقيق وأرفعها للإدارة لتأخذ مجراها الطبيعي، وأرجو أن تكون ردودك في حيز الأسئلة التي أسألها يا أستاذ، والاتهامات التي وجهت لكَ عليها شهود كُثر.

- لكن الرجل سبَّني بأمي وأبي سبابًا فظيعًا.

- لمَ لم تكتب مذكرة بذلك، وتستعين بالمدرسين الذين كانوا معك كشهود على الواقعة؟

- المدرسون والمدرسات انسحبوا من الحجرة بشكل جماعي قبل الواقعة بدقائق قليلة، حتى لو كانوا معنا فلن يساندني أحدهم.

حدجه الوكيل بنظرة طويلة. قال أشياء كثيرة ولم يتحرك فمه في تلك اللحظات العصيبة قبل أن يفتح محضر التحقيق. بالتأكيد كان يدرك أن المؤامرة قد سُبكت منذ وقتٍ طويلٍ، وقد وقع فيها بقلة خبرته، لن يشفق عليه أحدهم. بالتأكيد يعرف أيضًا أن «ياسر» رَجُل لا يتورع عن حَبكِ المؤامرات داخل المدرسة وخارجها، لقد قَبِل الرجل بأن يكون هو الطرف الآخر في مقابل «أكرم» الذى لا يزيد عُمره عن عُمر ابنه، فقط ليقول للجميع إنني الكبير هنا في المدرسة، لدي كل خيوط اللعبة.

يعرفون صولات وجولات «ياسر الدسوقي» الانتخابية مع مرشحي الحزب الوطنى السابق الأكثر حظًا، يتسلون بانحرافاته الكثيرة مع بعض الإداريات في المدرسة، وضبطه أكثر من مرة لدى سيدات سيئات السُمعة، وهروبه ذات مرة بالملابس الداخلية من بيت إحداهن بعد الهجوم عليه، وحصوله على شبه «إتاوة» من مجمع الدروس الخصوصية؛ لأن له سطوة على مدير المدرسة وبعض الموجّهين في الإدارة التعليمية. كلما أتى موظف الشؤون القانونية للتحقيق بكى «ياسر» كمكلومٍ في ولد له. يُقسِم «أكرم» أن الرجل سبَّه بأمه، وأنه لو كان قتله ساعتها لما ندم، لكن لا شهود معه، لا أحد يريده الآن في المدرسة. يعيدون على من يستسمحهم في الضغط على الأستاذ «ياسر» للقبول بحل ودي

يضمن عدم التعرض للأذى بعد ذلك بين الاثنين، إن الموضوع لا يخص «ياسر» وحده، بل يخص هيئة التدريس كلها التي نالت الأذى بمذكرات «أكرم» المتعددة، وافتراءاته.

رفع مُحقق الشؤون القانونية مذكرة التحقيق مع شهادة الشهود، والكشف الطبي، فوقع الجزاء بحجم التوقعات من رئيس الشؤون القانونية، وبمراجعة قرار النيابة الإدارية وبالعرض على وكيل الوزارة تقرر استبعاد «أكرم سليمان» خارج المحافظة لستة أشهر، حلًا يرضاه الجميع حتى يمنعوا «ياسر» من الذهاب في طريق النيابة العامة، وتتحول إلى جُنحة لا يعلم أثرها أحد.

-٢-

كانوا ثلاثة في حجرة وكيل الوزارة: أبوه، ومسؤول لجنة المتابعة بالجيزة، وهو. بزغت مدرسة «مصطفى كامل الابتدائية» بقرية الكور التابعة لأحد مراكز محافظة الدقهلية على لسانه وقت أن سأله وكيل الوزارة عن المكان الذى يريد الاستبعاد إليه لستة أشهر؛ كنوع من الإرضاء بقبول توسط مسؤول لجنة المتابعة. ربما كان الطلب ساكنًا في عمق أعماقه، وينتظر لحظة الانطلاق.

لقد بحث أبوه من قبل عن ثغرة ينفذ منها ابنه من عقوبة كانت ستصل إلى الفصل التعسفي من الوظيفة، وما وجد غير قريب لأحد كتبة المحكمة في لجنة المتابعة. لم يتوان الرجل عن الإلحاح على وكيل الوزارة: للتصديق على المحافظة التي يختارها الابن، والمدرسة أيضًا إن كان يعرف مكانًا قد يستريح به عدة أشهر. مرت اللحظات ثقيلة على «أكرم». لم يكن يود أن يوضع في موقف كهذا. كان رضوخه نوعًا من المماراة لأبيه الذى شارف نهاية الرحلة، ولأمه التي بكت كثيرًا طوال أيام التحقيق، بكت شهامة ومروءة الناس التي راحت، بكت التعنت حد الإذلال من «ياسر» وزملائه. حتى هو لم يقبل بذهابهم في زيارة إلى بيته؛

لتقديم الاعتذار فإنه لم يستطع، في هذا الموقف بالتحديد، أن يصطدم بأبيه وأمه مرة أخرى فربما لا يراهم بعدها في أي وقت خصوصًا أنه ومنذ أسبوع كان يجلس مع والديه في حجرة الجلوس، يتناقشون فيما حدث. قالت أمه إن السباب لا يلتصق بالإنسان طالما صدر من إنسان لئيم وقذر. لمح ظلال الحزن في عيون أمه التي اعتادت أن تكظم غيظها؛ كي لا تدفع ابنها للانفعال أكثر من ذلك.

زمت أمه شفتيها، عجوز هي الأخرى، لكنها تخفي قلقها خلف قناع من الصبر، تؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن الحق سينتصر في الدنيا قبل الآخرة. لما ينفد صبرها أحيانًا تقول: «يا رب، اجعل هذا اليوم يوم القيامة؛ كي تُرَد الحقوق إلى أصحابها فورًا، وينالَ الظالم عقابه». أما أبوه فكان يخرج عن شعوره بعض الوقت، فيسب ويلعن هذا وذاك. وقد يقابل ضيفًا، يطلقان نكاتًا يسمعها «أكرم» صدفة. في طفولته كان يظنها جُنوحًا عن الدين، لدرجة أنه يظل طوال المساء يحدق في وجه أبيه كلما انشغل الرجل بشيء ما؛ لأنه يعتقد أن عقابًا ما قد يسقط على رأسه في لحظة، فيُسخط قردًا كما قال شيخ الكتّاب عن اليهود الذين سخروا من الله، وخالفوا أمره. حين لا يستطيع تحمل تلك الخيالات يحتمي بحضن أمه؛ ليسألها عن جزاء من يسخر من فروض الدين في صورة نكات فظيعة. تدرك أمه ما يقصده، فتهدئ روعه بقولها:

«إن الرجال قد لا يقصدون الشيء الذين يسخرون منه خصوصًا إذا كانوا يؤدون الفروض على أكمل وجه، لكنهم يروّحون عن أنفسهم قليلًا، وهم طبعًا لا يتساوون مع المؤمنين أمثالك يا بني. إياك أن تسخر مهما حدث»، ثم يسمع لومًا عنيفًا وشجارًا بين أمه وأبيه في الليل. كان ذلك قديمًا.. ساعة أن كان يرى الدنيا بعقل الطفل في رأسه تمامًا كأمه دائمًا. ترى إلهها قوي الشكيمة. يجلس على عرشه المنصوب في السماء السابعة إلى أخر ما لا يتخيله بشر، هائل عظيم حاد النظرات، لا يضحك إلا مرة كل ألف عام، نَاظرٌ بطرف عينيه إلى مخلوقاته في العالم الذي يطوف حول قدميه اللا مرئيتين بينما يستعد، لمكائد الناس الشريرة، في كل لحظة أن يخسف الأرض بمن عليها، فتوقفه صرخة طفل جائع، أو امرأة فقيرة تبيع في السوق، أو عجوز تدعو بالهداية لولدها، أو امرأة تطلب الستر لبناتها، وشيخ يدعوه بالرحمن الرحيم، فيخف حنقه.

«لولا رحمته لكنا ترابًا يا بني». تقول أمه بمناسبة، وبغير مناسبة، كأنها تتذوق الكلمات؛ لتبلل صدرها بماء الحياة، وحلاوة الاطمئنان إليها، أما أبوه فلم يتحول تفكيره الجانح إلى عاطفة مضطرمة خائفة كعاطفة أمه إلا بعد أن خرج على المعاش، وانتهبته أمراض كثيرة.

في هذا اليوم وبعد أخذ وَردٌ، وانفعال هاجمت أبيه «دوخة»؛ ففتح مُصحفًا يقرأ فيه؛ ولأنه فتح الصفحة تلقائيًا، وهو يرتجف، فقد قرأ آيات تصب العذاب على المجرمين الكافرين. قَلَب الصفحات تلقائيًا، في كل مرة كانت تصدمه آيات أخرى غير تلك التي يريد الرجل أن يختم حياته بها لُيبعث عليها كما يعتقد، لذلك دفع المصحف سريعًا إلى ابنه قائلًا برجاء: «طلِّع لي سورة حلوة أقرأ فيها».

-٣-

على المحطة شاهد أطيافًا متداخلة، كان الإجهاد قد التهم طاقته، فسمع أصواتًا ترن وتنطفئ، ثم تعاود الرنين في صخب مستفز، شق طريقه إلى الباب المفتوح بصعوبة، وجد جسده يدُفع من داخل عربة القطار للخارج بأصابع حادة، وقبضات غاضبة على رأسه وظهره، بيده اليمنى حقيبة ملابسه الزرقاء الباهتة، مقبضها المعدنى يحز في أصابعه، لكنه كان يقبض عليها كما يقبض على حواسه المضطربة التي ظلت تنتقل بين الجريدة المفتوحة في يده طوال جلوسه على كرسيه الخشبي في القطار، والمشاهد الخارجية التي تغادره كل لحظة، كأنما يستعيد حياته الفائتة، فوق كتفه اليُسرى حمل الحقيبة الجلدية السوداء التي تضم بعض كتبه المهمة: جواب النقل إلى مدرسة «مصطفى كامل» الابتدائية بقرية «الكُور». أوراق مدوَّن بها بدايات رواية لم ينتهِ منها بعد. رؤوس أفكار، وقصاصات وصفية في مفكرة زرقاء صغيرة، وبعض القصص القصيرة على جهاز «اللاب توب»، أما المنشور منها في الجرائد، والمجلات فقد قص منذ فترة نسخة منه، ووضعها في ألبوم بلاستيكى كبير لا يغادر حقيبته، أصوات الباعة منذ تركها وهى لم تغادر أذنيه، تقتحمهما من جديد،

عروض مجانية لعطور في علب فارهة، يعرف أن باطنها يمور برائحة فيها زفارة كالبيض الفاسد، شباب وفتيات، مثله أو أصغر قليلًا يتاجرون في الوهم. تتلاقى الوجوه في لحظة لا تتكرر مرتين، يحاول أحدهم التغرير بالمارة بلعبة الحصول على شيء ما مجاني. كان قد تدرب على الرفض بقوة في مثل هذه المفاجآت التي تنتهي بتوريط مَن يصدق تلك اللعبة؛ لشراء أشياء لا قيمة لها بأسعار باهظة، يتلقى كلمات أحدهم بجانب وجهه، ويرد عليها بإشارات حاسمة، ثم ينزلق كل منهما إلى عالمه الخاص، فيتركوه بعد عدة أمتار إلى آخرين ورائه، قد يستجيبون، وقد لا يفعلون سوى الإشاحة بوجوههم، شحاذون متجولون على عكازات خشبية بجلابيب متسخة بعضهم يجر على ساقه العارية كيس «أسترة» للبول. البعض جالسٌ على جوانب المحطة على كرسي خشبي أرضي بعجلات تنقل. أفخاذهم عارية بلا أقدام أو سيقان. البنات الصغيرات يسرحن بعلب المناديل، وفوط سيارات برتقالية زاهية. البنات متسخات جائعات، كأنه يعيش المشاهد نفسها في كل المحطات التي هبط فيها، داخل القطار نفسه لا يسلم ممن يورطون الآخرين في لعبة الشفقة تلك بأكياس الحلويات، المناديل، الساعات الرقمية، وجزء «عمَّ»، والمعوذتين على ورقة جلدية ملونة، يتابع هذه المشاهد باشمئزاز وخوف طوال حياته، يسأل نفسه: إلى أي درجة من فقدان الإنسانية يقف هذا

الشخص الذى لا يأبه بنظرات الآخرين ليبيع الوهم؟! ومن منّا سوف ينزلق ذات يوم إلى ذلك الموقف بعد خسارة ما يملكه من مال، أو وظيفة، أو حرب طارئة تُشرد الملايين؟!

يهرب منطويًا مرة أخرى إلى عالمه الخاص، فيستعيد ما حدث معه بتفاصيل أكثر ضراوة من قبل، وقد يمارس مع نفسه لعبة تبكيت الضمير التي تنتهى بهروبه إلى التفكير في أشخاص بعيدين عنه، لكنهم يشبهونه، وحيدون تمامًا بأفكار لا يُقَدِّرُهَا أحد، ومشاعر لا يُؤبه لها، ومحاصرون بكوابيس لا تنتهى، رغم ذلك هم راسخون كالصخر حتى النَّفَس الأخير.

هيئة الأستاذ «سعيد عبد الغفار» لم تغادر قلبه حين رحل عن الكور، وها هو الآن عائد إليها، إذا غابت صورته عن رأسه فإنه يحاول نحتها في الفراغ خصوصًا كلما وقع في مأزق، كان طفلًا.. كل جديد يدهشه. «الكور» حينذاك كانت هى الأخرى قرية صغيرة من قرى الدلتا بحجم أحلام الصغار، بيوتها من الطوب اللَّبن، والغاب، والخشب، والقش. من طابق واحد. فوقها مَقْعَد: للراحة، واستقبال الضيوف. حين يكبر ابن لعائلة ينتقل بزوجه إليه، بيوت من الطوب الأحمر قليلة على المدخل الشمالي للبلدة، وفي جيوب بعض الحواري، شوارع كثيرة ضيقة متداخلة كشبكة عنكبوت مهترئة، أما شوارعها الكبيرة القليلة فمتعرجة كثعابين محنطة ساكنة في أماكنها.

كان يقال إن للكُور تاريخ ضارب في القِدم، قال أبوه منذ زمن بعيد: إنها منذ عهد الفراعنة، لما كبر، وأصبح في الصف الخامس الابتدائى، استبعد حكاية الفراعنة تلك مع بعض أصحابه؛ فلم يُكشف بها أثر واحد من الآثار الذهبية التي سمعوا باكتشافها في قرى تفصلها عنهم عشرات الكيلومترات، وبعض المناطق القريبة ك «ديمه»، ويقال منذ كان يعيش في «الكُور» إن هناك سردابًا من الحجر الجيرى يمر على حواف «الكُور» رابطًا بين «ديمه» وقرية فرعونية أخرى طُمست معالمها، مملوء بصناديق الذهب، والفضة، والتماثيل الجرانيتية، وأوراق البردي، وعدة الكهنة. لم يدخله أحد بعد، وإن كثرت الحفائر على أطراف البلدة وهم صغار، وإن سقطت ثلاثة بيوت في حَوار مختلفة على رؤوس أصحابها. قيل في تفسير ذلك إنهم كانوا يحفرون خنادق عميقة للبحث عن الكنوز المخبوءة في الأعماق. التوق لمعانقة الأسرار لم يغادر رأسه أبدًا، الآثار الوحيدة القديمة التي كُشفت فعلًا في «الكُور» من قبل كانت هياكل عظمية أخرجها صندوق «الكراكة» أثناء حفر أساسات عمائر الإسكان الاجتماعى، قال الناس: إن أصل هذه الأرض التي ستقام عليها العمائر كانت مقابر تم نقلها إلى الجهة الغربية من البلدة حين تمددت حوائط البيوت نحوها، لا أحد يستطيع أن يبني بيته فوق مقبرة قديمة، الأرض نفسها كانت مِلْكًا للحكومة. الغرباء سيسكنون العمارات دون أن يأبهوا لذلك؛ فلا آباء، أو

أجداد لهم هنا: ليخرجوا لهم في الليل من العتمة مؤنبين إياهم على هذا الصخب، والتبسط فوق أجسادهم التي صارت ترابًا، وعظامًا غائرة لم تخرجها الكراكات. أما الآثار الحية فتمثلت في مجنون يطوف الحواري ليل نهار بجلبابه الرصاصي الغامق، يحجل في الشوارع كطائر مكسور المخالب، مُطارَد من الصغار الذين لم يكونوا يحملون أية شفقة تجاه المجانين. كان «أكرم» واحدًا من هؤلاء، ينادون المجنون بـ«أبي طبل»؛ فالرجل لا ينطق حين يتكلم بكلمة واحدة، بل يصيح ببعض الصيحات الغريبة، أو يخبط بخشبة قصيرة على الحوائط، والشبابيك الواطئة، والأرض في الليالى المُظلمة. الأثر الآخر الحي كان لامرأة ممتلئة بيضاء، مشربة بحمرة مخيفة، وعيون عسلية واسعة غائرة ساحرة، يهابها الكل، ويسمونها: «فلك النور».

مدَّ الخطى ليصل خلال النهار، قد يكون ذلك من المعجزات؛ لأن الشمس تكورت، وهوت وراء العمارات مُخلفة حُمْرة شاحبة مريضة على السماء، والوجوه، والشوارع.

«موقف سيارات الأجرة لقرية الكُور هنا». أشارت بائعة الخضراوات بإصبعها المشقق وهي تتفحصه بعيون فضولية، رمق وجوهًا ملولة تدور عيونها يمينًا ويسارًا. أفحمته ضحكات مقتطعة في هذا الوقت الحساس من النهار. كان القادمون إلى الموقف يهدهدون إعياء اليوم بأمل الوصول مبكرًا، وقف غير

بعيد عن الناس، حاول أن يسأل شابًا بجواره عن السيارات الغائبة، فأخبره مستاءً أن هذا يتكرر كل يوم:

- يسيطر على موقف الكُور بالمدينة بلطجي. قبل الثورة كان موقف الكُور بعيدًا عن هنا. نستقل سيارة أخرى؛ لنصل إليه خارج المدينة، وجاء هذا البلطجي الذى يسيطر على المنطقة وتجارها. وأعاد لنا موقفنا القديم مرة أخرى.

«يا معلم حِجّى». ذهب باتجاهه أكثر من واحد. النساء وقفن على مقربة يرسلن النظرات المتوسلة.

قال الرجل الذى كان يرتدي قميصًا أزرق بنصف كُم وبنطالًا من «الجينز» حائل اللون.

- خير يا إخوانا؟

كان وجهه عريضًا، وعيونه جاحظة، ويبدو أنفه كالمنارة في وجه غائم خلف نتوءات الجُدري. إنه يدرك بالتأكيد معنى الوقوف أكثر من نصف ساعة، أو ساعة في انتظار سيارة أجرة من موقف «المنصورة» حتى «الكُور» في هذا الوقت. وكما أخبر الشاب «أكرم»:

- لا يخرج سائق واحد من القرية إلا وحمولته أربعة عشر راكبًا في أحشاء السيارة، وغالبًا ما يكون العائدون أضعاف المسافرين في هذا الوقت من المساء، فتحدث هذه الوقفات الكبيرة.

ضم «أكرم» ساقيه ليتماسك، رفع الفتوة تليفونه المحمول

مجريًا اتصالًا بسيارة أجرة، وراء السائق انحشر بحقيبتيه، المناوشات كادت تطيح به مرة أخرى؛ بسبب طلب السائق أجرة مضاعفة من الركاب حسب ما سمع رغم أن المساء لم يحل بعد، وجَّه الفتوة نظرة لائمة للحضور بعيونه الكبيرة محمرة الجوانب، فهدأت الاحتجاجات إلا قليلًا، وحين أعلن، بغضب، وتوعد، كلمته الفاصلة:

- أنا غلطان.. حقكم عليَّ.

تخلى السائق عن جزء يسير من الأجرة التي فرضها، وتخلى المحتجون عن الكلام وإن كلفهم الانتظار داخل العربة عدة دقائق؛ حتى تشد العربة آخرين على الباب لم يكن لهم مكان. بنبرة انكسار قال رجل في الكرسي الأخير:

كله لف ودوران من أجل استغلالنا.

لفَّ السائق الغريب وجهه نحوهم قاذفًا نظرته النارية في وجوه الركاب جميعًا، وكاد أن يوقف «الموتور» ويسحب مفتاحه قائلًا: «اتفضلوا انزلوا يا جماعة». لكن يدًا متغضنة في الكرسي الأمامي لشيخ هرم أمسكت يد السائق القوية في توسل، فانسحبوا إلى دواخلهم في صمت وانكسار.

انطلقت العربة، فتذكر «أكرم» ما قاله له أبوه بالأمس: «هذه القرية هى بلدتك الحقيقية، بها وُلدت، هناك سيحتويك الناس، لكن لا تكرر غلطتك مرة أخرى». في اتصاله الهاتفي الأخير

بينما كان في القطار ردد نفس الكلام لأكثر من مرة. قال لنفسه: «كلها ستة أشهر. بعدها أعود إلى رئيس التفتيش، فيعيدني إلى مدرستي الأساسية «الأمل الابتدائية» مرة أخرى، لكن هل يمكن أن أتواءم مرة أخرى مع من استفزوني حتى خرجت عن شعوري، فخانوني بمذكرات تسجل كل شاردة وواردة، ثم قذفوني بالباطل؛ ليتخلصوا مني؟ زملائي الشباب لهم مصالح مع الكبار لذلك فهم يطلبون مني الهدوء، والاحتفاظ بآرائي لنفسي. هؤلاء وأولئك لن يقفوا بجانبي إذا حدثت مصائب في أي وقت، لذلك لا مناص من الاعتماد على نفسي طوال الوقت».

كانت الرائحة على مشارف القرى المربوطة بخط واحد لا تُحتمل، يقف السائق في القرى المتجاورة، فيهبط واحد أو اثنان.. يأتي بدلًا منهما، في كل مرة كان يهبط من السيارة ويعاود الصعود؛ لأنه يقعد في الكرسي المجاور للباب، تذكر أمه وهي تقول له: «لا تقعد بجوار باب أو زير ماء». ولأول مرة خلال النهار يبتسم، بعد أن صار مُراهقًا كانت أمه قد أضافت لمحاذيرها: «ولا بجوار مُدخن، أو عاطل، أو شقي، أو فاسق». سأقعد وَحدي مع وحدتي؛ فهل هذا سينجيني من الإعصار يا أمي؟!

قاوم الإعياء وهو يمضي في طريقه، عاود شحذ الذاكرة مرة أخرى بالبيوت التي كان يعرفها، عاش أبواه هنا في «الكُور» خمس عشرة سنة، أبوه أنجب أخته الكبيرة التي توفيت قَبله، هو عاش هنا عشرة أعوام كاملة، ثم أنجب والِداه أختين بعد ذلك، ثم رحلوا إلى «دمياط» البلد، ومنها إلى تخوم القاهرة. لأبيه أصدقاء ومعارف، لكن لا أقارب، هم رُحَّلٌ كبدو. تناديهم الوظيفة، فيسكنون جوارها. يتنقل أبوه من مكان إلى مكان كلما لاحت فرصة للعمل بجوار وظيفته الحكومية كحاجب في المحكمة. في ساعة العصاري كان البيت الذي يسكن فيه، من الطوب اللبن، يستقبل هواءً رَخيًا. لم يشبع منه أبدًا ولم ينسه، أخواته البنات كن يرششن تراب الأرضية بعدما يكنسنه بماء معطر بالورد، ويمسحن اللوحات اليدوية المعلقة على الحوائط بخرقة قديمة مبلولة بالماء. لوحات كانوا يصنعونها سويًا في شكل مثلثات ودوائر ومربعات بورق الشمعدان البلاستيكي الملون. كان أبوه يُشكّل لهم مراكب خشبية وأحصنة وجِمَال وبيوت أسقفها مائلة، يلونها بالأحمر الطوبي فتبدو كالقرميد، ثم يطلي حوائطها بالألوان، ويعلقها على حوائط حجرة النوم. كم ركب «أكرم» سفنه وخيوله

وجِماله في خياله! كم عاش في منازله التي تشبه منازل اليابانيين، ورواد الشواطئ الفارهة! كم حَلَّقَ من هناك إلى عوالم غرائبية عبر صحراوات قفرا تخفي في كهوف خطرة شديدة العمق ليلًا؛ حتى لا تلتهمه السِّباع. ركب البحر بمراكبه حتى عبر أمتارًا قليلة، لكنه يخاف في كل مرة من التعمق فيه، فيعود مسرعًا إلى صحراواته وأحراشه مرة أخرى. لديه قناعة أنه في الصحراء لن يموت طالما الحذر ديدنه، لكن البحر مراوغ ليس صديقًا وفيًا، في الليل كان يريد أن يقتل خوفه مرة واحدة بالذهاب إلى مقابر «الكُور» المقامة على الطرف الغربي للقرية.

كانت «الكُور» كما قال أبوه في البداية عبارة عن تباب عالية يحاصرها الماء أثناء الفيضان ثم يغيض، فيهبط الناس ليزرعوا، وكانت تُسيجهم الأحراش من كل مكان؛ لذلك كانت محطًا لقبائل بعض العرب والهاربين والمتمردين الذين لا يتحملون سطوة وقسوة الحكومات المتوالية.

دخل «أكرم» إلى المقابر ليلًا في أحلام يقظته في الطفولة، طاف شوارعها وهو يرتدي صديرية وبنطالًا من الحديد، وخوذة من الحديد أيضًا بها فتحات من زجاج سميك شفاف. كان يحلم أنه يرتدي جهازًا عملاقًا، وهو يمتطي حصانًا قويًا شجاعًا. يخاف من مجرد تصور أن يشد أحد قَدمه، لكنه فكر وقتها: «كيف يمكن أن أواجه خوفي إذًا من وراء القناع؟!»

أمس قال له أبوه وهو يُجهّز حقيبتيه: «الحاج محمد عثمان لن يتحرك من البيت غدًا، سيسلمك شقة صغيرة مجهزة ببيته، بإيجار مناسب جدًا».

سأل بعد المرور من الشارع الرئيسي الذي يصنع خطًا متعامدًا مع رصيف البلدة عن منزل الحاج «محمد عثمان». تفرس في الوجوه، وتفرَّستْ العيون به. هناك دائمًا كلمة معلقة على شفتيه، وعلى شفتي، سواء ذلك الذي سأله أو آخرين، وهم ينظرون باتجاهه، يتعجبون من إصراره على المشي مثقلًا بحقيبتين في شوارع مليئة بالندوب رغم رصفها، مال من شارع جانبي، كان يلعب «السبع طوبات»، ويمثل «عسكر وحرامية»، و«علي بابا والأربعين حرامي»، في أخنان الشارع، كان السور الطويل الذي يواجه البيوت مع بعض المداخل والأعشاش الصغيرة، سور بيت قديم كبير، بنيت مكانه عشش، وبيوت صغيرة، لكنه رغم تغيير منظر البيوت وجد العش الخشبي - كما هو - قائمًا كنُدبة، نظر لحظة كأنها دهر فرآها. للمفاجأة التفتت كأنها كالعهد بها تحدس كل ما حولها، أرعبته النظرة بالضبط كما كانت ترعبه قديمًا رغم امتلاء ملابسه بهذا الكهل الذي تجاوز الثلاثين عامًا بعامين. يظنها كانت ممددة جوار الأوراق، وجوالات الإسمنت الفارغة، والأكياس البلاستيكية، وعلب الصاج الصغيرة. للحظة تخيل أن الشارع فرغ من صخبه المسائي، وأنه وحده معلق بحبل

مجدول من رقبته. لا يستطيع التزحزح؛ لأن المرأة صلبته بعينيها القويتين، جسمه كله ضربته صاعقة، فتسمَّر في مكانه، مالت حقيبته على سور صغير، كادت حقيبة اليد أن تسقط.

«فُلك النور» كما هي منذ اثنين وعشرين عامًا، ربما تغيرت معالم وجهها، وصار شعرها شمسًا ساطعة فوق رأسها المدور، تخفيه الآن تحت «طَرحة» سوداء محبوكة، وجهها الأبيض المليء بالتجاعيد أكد له، وعيونها الواسعة المُهدَّدة لم تنزل من فوق جسده، لكن أصابع حاسمة أمسكت برُسُغه وأنقذته في الوقت المناسب قبل أن يهوي على الأرض من قوة المفاجأة غير السارة..

«إلى أين أنت ذاهب يا أستاذ؟». فوجئ بشيخ هائل الجثة ولحية بيضاء تتمدد على صدره، ردَّ: «بيت الحاج محمد عثمان، عرفت مكانه من السؤال». لكن الشيخ ظل يحاذيه حتى اطمأن إلى وقوفه أمام البيت.

كان «محمد عثمان» إذًا واحدًا من أهل الحارة. لم تسعفه لَبَاقته، فنسي الاتصال بهاتفه المحمول قبل الوصول بعشر دقائق، أو خمس. ضغط زر الجرس. سمع عصافير تشقشق في الداخل، وصوت يرد، وحفيف أقدام تهل، فتح الباب وجه أسمر لأنثى في السادسة تقريبًا. نظرته بتطلع، ثم عادت سريعًا إلى الداخل، عادت ووراءها رجل أسمر متوسط البنية يرتدي جلبابًا أبيض، وعلى رأسه شالًا بنيًا خفيفًا، حمل عنه الحقيبة، لم تكن إلا لحظات نطق فيها اسمه، فجاوبه «أكرم» بهزة من رأسه.

كان الرجل بلا رائحة عندما احتضنه: «غالي وابن غالي. بيتك ومَطْرحك». أطلعه على كل تفاصيل الشقة.. «هي صغيرة يا بني، لكنها محكومة». تذكر «أكرم» أباه وأمه وهما يستخدمان كلمة: «محكومة» دائمًا للدلالة على صغر الشيء، والقدرة على احتوائه، ففهم أن الرجل يميز الشقة الصغيرة بتلك الكلمة. «حجرتان: ثلاثة في ثلاثة ونصف متر. الداخلية يفتح شباكها على مسقط بحري، ستكون حجرة النوم؛ لأنها «معكوفة». «معكوفة»، أيضًا، لدى أبيه وأمه تعني دائمًا: منطوية وخاصة. هل تَشكَّل قاموسهما الكامل هنا؟

كان لأبيه أصدقاء هنا، في ساعة العصاري ينصبون قعدة «الجوزة»، و«الشاي»، و«الدومينو» على المصطبة الطينية التي كانت لبيتهم. كان ينصت، بينما هو في الداخل يكتب واجب المدرسة، أو يستذكر دروسه، إلى تلك الطقطقات الحميمة لقطع الدومينو. مع «شيش يك»، «شيش بلاط»، «دو يك»، «قفلة». يعرف أنها أشياء لها نظامها الخاص في الترتيب. جمع مالًا مع أصحابه الصغار؛ ليشتري واحدة صغيرة، كل واحد منهم كان مكلفًا بإخفائها لديه أسبوعًا، فكان «أكرم» يدسها حينما تكون معه في جوف عريشة القش، والغاب فوق جلباب رمادي ممزق بين عروق الخشب والغاب. يتدلَّى جزء منه إلى أسفل قليلًا، لا يأتي على بال أحد من أسرته هذا المكان؛ فهو في الجزء الخارجي الذي

يظلل المقعد الذي بناه أبوه؛ لمذاكرتهم ولعبهم، لكن المجلات: «ميكي ماوس»، و«سمير»، و«المغامرون الخمسة» فيخفيها تحت كنبة الصالة. رغم أنهم كانوا يلعبون «الدومينو»، و«الكوتشينة» في أغلب الوقت إلا أن تلك الأرقام، والكلمات لم تثبت أبدًا على لسانه، ولم يسع إلى حفظها عندما كبر ووعى؛ لأنه أصبح يرى أن الإنسان هو الذي يجبر الحظ أن يمشي معه خطوة بخطوة، سوى ذلك فآمال وطقوس تُعطّل ولا تفيد.

أمه هي الأخرى كانت تجمع الجارات في ليلة العيد، أو قبلها بأيام؛ لصنع الكعك، والبسكوت، والغُريّبة. كان استقبال واحدة منهن، أو أكثر طوال النهار، وأبوه في العمل شيئًا متكررًا كل يوم. تروح واحدة، وتأتي أخرى؛ لطلبات صغيرة: عود كبريت، إبرة وابور، قليل من الملح، كوب من الزيت، أو السُكر. لكن الحقيقة هي أن النساء لا يصبرن على أسرار يعرفونها، فحينما كانت أمه تجلب الشيء المطلوب، وهى تُسبق ذلك بكلمة: «من عيني» تضعه المرأة جانبًا، حين تدعوها أمه إلى الجلوس، يجلسان على الكنبة، تحكي المرأة، وأمه تسمع، تقاطعها للاستفسار، وأمه تحكي، والمرأة تسمع وتقاطعها للاستفسار، يروح ويجئ حولهما. تتغافل أمه عنه بعض الوقت، لكنها حين تضبطه تصوب له تلك النظرة المهددة من عينيها؛ ليلعب مع رفاقه في الشارع فهناك أسرار ستقال ولا يجب أن يطلع عليها الصغار، وقد تخرج المرأة قطعة

نقدية من منديل معقود في صدرها لتعطيها له، ساعتها ترمقه أمه بحدة، وهي تكز على شفتيها، وتغلق عينها اليُسرى وتفتحها. يفهم التحذير ويخافه؛ فيجري هاربًا إلى أصحابه في الشارع.

«الحجرة الأخرى في الشقة تطل على شارع صغير، شباكها عالٍ، بها باب يفتح في بلكونة صغيرة، بها أحبال لنشر الملابس، لو وقفت فيها سترى أحشاء البيت المقابل؛ لذلك استخدمها لتجفيف ملابسك فقط إذا أمكن، بين الحجرتين صالة صغيرة بأخرها مدخل بارتفاع باب للمطبخ والحمام».

رائحة الزيوت والصابون والطبيخ ما زالت تعبئ أجواء الشقة.

أراه العم «محمد» كذلك، بينما يبتسم متباهيًا «الأحواض البيضاء، المياه موجودة باستمرار. الكهرباء أحيانًا تنقطع. الجيران علاقتنا بهم شحيحة. لكنهم ناس طيبون».

قال «أكرم» بينه وبين نفسه: «تعرف يا عم محمد، إنني لو قلتُ لك ما واجهته من قبل ستقول: إن الناس أشرار مثلما تقول أمي. أعرف أنه لو استيقظ أحدهم في الليل صارخًا طالبًا النجدة ستفتح عينيك فزعًا، ثم تنشغل في ارتداء هِندامك كاملًا كأبي مستهلكًا بعض الوقت؛ حتى تطمئن أن هناك أحدًا آخر قد ذهب أولًا. لو بنى أحدهم مصطبة متماديًا في الشارع عشرة سنتيمترات ستقف له بالمرصاد. وقد تنقلب عركة يتخلف عنها جرحى وضحايا كما حدث في هذا الشارع من قبل. لا تكذب فتقُل:

هم طيبون. بل أخبرني بما في نفسك؛ حتى أحترز. هذا مثلًا يعمل مُخبرًا للأمن براتب، وذاك بدون راتب؛ لأنه صعلوك يبغي التقرب من أفراد الشرطة، هذا مرض معروف يصيب الكثيرين، يقدمون خدمة للأمن دون أي مقابل، بل تنتشي أرواحهم حين يرميهم أحد ما من أفراد الأمن بالسب والقذف. ينتشون كأنهم واقعون تحت حالة إغواء جنسي. هناك المتسلطون والنمامون والذين ينتظرون سقوطك؛ حتى يجهزوا السكاكين لفصل الجلد واللحم عن عظامك. اللصوص، والخونة، ومعدومو الضمير. الزُناة، والكذبة، والذين يحشرون أنفسهم فيما هو لغيرهم. قُل لي يا رجل ولا تخف، أو تتواطأ معهم على نكران كل تلك الصفات؛ أما الطيبون، أو بالأدق الذين يعرفون بعض قواعد الأصول ولايتدخلون بشؤون غيرهم فسأعرفهم بالمعاملة».

كانت الشقة مفروشة بطريقة بسيطة ومكتملة. أربعة كراسي «أنتريه» صغيرة، مساندها شريحة خشب بُنية، مسندها مشغول بالأرابيسك، مقعدها قرمزي بورود صفراء، وأوراق سوداء صغيرة. كنبة متوسطة الحجم. بينهما «طقطوقة» بُنية جميلة، ومكتبة تليفزيون بلا تليفزيون، منثور عليها بعض الكتيبات الدينية على الأرفف الزجاجية. سجادة الأرضية حوافها زرقاء، بداخلها ورود مهترئة وإن كان وجهها نظيفًا بلا أتربة. في الصالة كنبة عليها مفرش ملون من الكليم. طاولة خشبية متوسطة

الارتفاع. ستكون مكانًا ملائمًا للكتابة، وتحضير الدروس. قال «أكرم» لنفسه.. في الحجرة الداخلية سرير لفرد واحد، ودولاب من ثلاث ضلفات. اكتشف أن المكان الفارغ الموازي للسرير كان به سرير لفرد آخر، لعل الرجل أخذ السرير؛ حتى يضمن مستأجرًا اخر يأتي به بعد أن يفاوضه. بالتأكيد قال والده لـ«محمد عثمان» كل شيء عنه، فأدرك أن وحدته هنا ستكون مقدسة، وأنه سيقابل الناس، أو يمتنع عنهم في الوقت الذي يحبه. لن يُفرض عليه شيء ما مهما حدث. لعله لو وضع سريرًا آخر سيقول له: «لا أحد معي». وسيرد الرجل: «إذا جاء معك أحد ما سينخفض ما تدفعه إلى النصف، وكله في صالحك»، فيرد «أكرم» بحسم: «لن أرافق أحدًا في السكن هنا. كلها ستة أشهر وأمضي».

قال الحاج «محمد عثمان»: «اليوم ستتناول العشاء معنا». وقال «أكرم» لنفسه حين نزل الرجل إلى شقته بالطابق الأرضي: «حبذا لو يعاملني كغريب، فلا يكون عينًا لأبي وأمي». التليفون المحمول أفضل وأسوأ اختراع في الوقت نفسه، فكما أنه يقرب المسافات فهو يلغي الخصوصية، ولا عزاء لرائحة الخطابات البريدية، والعزلة الاختيارية. حتى لو ابتعدت فلن يبتعدوا. هنا سأحاول أن أجمع كل ما حيرني وأنا طفل. قال أحد الكُتّاب وكان يعمل في بداية حياته مُدرّسًا للأطفال أيضًا: «إذا أردتَ أن تأتى بمئات الأفكار فما عليك إلا أن تنظر في وجوه تلاميذ فصلك

الدراسي، ثم ترى أين ذهبت الحياة بكل واحد منهم،.. معي مسودة روايتي وقد وصلت إلى طريق مسدود، وعلى أن أبدأ هنا من النقطة الأولى مرة أخرى.

رتب قمصانه، وبناطيله، وضع أدواته على المكتب الخشبي في الصالة، دفع حقيبة الملابس الفارغة في الدولاب، ثم وضع حقيبة «اللاب توب» على كرسي الأنتريه، ولفه إلى الوراء؛ ليفتح الباب بعد أن رن جرس الشقة.

«سمير» مراهق في الثالثة عشرة من عمره على ما يظن. واجهه بعيونه الواسعة، ووجهه المستطيل القمحي: «تفضل يا أستاذ، أبي يقول لك: العشاء جاهز». لا يزال الريف ريفًا حتى هذه اللحظة وإن تغيرت معالم الشوارع والبيوت، لكن ما الذى رآه وهو قادم هنا؟ كأن طفولته تشوهت بتلك التغيرات، وما الذى لم يتغير؟!

عقله يروح به ويجئ.. الناس سافرت الخليج، والدول الأوروبية وعادت، وسافرت وعادت، بعضهم أُعيد في صناديق خشبية مغلقة بعدما انقطع نَفَسه في الدنيا. ارفع حجرًا في أية دولة تجد تحتها مصريًا. هكذا صار شعار الجميع. وكأن ذلك امتياز لا تحوزه أية جنسية أخرى. هم يدركون، لكن لا يصرحون بأن ما يحدث لهم هو امتهان؛ لانعدام الطلب عليهم في بلدهم الأم، أو شبه انعدام فرص الحياة الكريمة بعمل شاق.. تملأ المحلات الشوارع، تنصب

لافتاتها الملونة بـ «اللمبات الفلورسنت» على الواجهات. العربات «الكارو» و«الملاكي» و«التُكاتك» تتجاور في الشوارع. قد يكون ما تغير هو الوجه الخارجي لحياة الناس، لكن معدنهم لا يزال كما هو. تحدثوا في أمور كتلك على العشاء. أفحمه «محمد عثمان» حين أتى على ذِكر «فُلك النور». بزغت ضحكة صغيرة على وجه الرجل وهو يخفي ارتعاش شفتيه وجفنيه، وشحوب ألمٍ بوجهه كله بينما يلتفت يمينًا، ويسارًا كأن أحدًا يختبئ في ركن ما ويراه.

-٥-

يتناقل الناس في القرية، منذ طفولته، أشياء مرعبة عن «فُلْك النور». يقولون إنها من طبيعة غير بشرية، جِنيَة مُسخت في صورة أنثى. إنها تُربك الناظر إليها لجمالها الخلاب، شعرها الأصفر في تسريحة ذيل الحصان يضيء خلال النهار، يهوي على ظهرها حتى ردفيها، وجهها كرة بيضاء مشربة بحمرة متوهجة كالكبريت المشتعل، عيناها نجلاوان مغويتان، وجسدها رشيق كتمثال من المرمر، لا يغادر زوجها البيت إلا لمشاوير قصيرة، ثم يعود محتويًا إياها بين ذراعيه القويتين، اختارته من بين عدة رجال. كانت عرَّافة. يأتيها الناس من القرى والكفور والعزب المجاورة في تلك البلدة التي عاشت فيها قبل أن تأتى إلى الكور. كانت أمه تخبره عن لسان النسوة المقربات منها إن زوج «فلك النور» طلب منها ذات مرة أن تظهر له بصورتها الحقيقية، رفضت، تضرع لها أن تظهر له ولو لمرة واحدة بصورتها الحقيقية، قال أبوه مقاطعًا أمه لمزيدٍ من التشويق: إن الجن أصلًا يشبهون قرد الغوريلا، ظلت المرأة تتهرب من طلبه، لما رأت في عينيه غدرًا قالت له: سأريك حقيقتي، حينها لم يستطع الرجل أن يصمد لدقيقة واحدة، سقط ميتًا. ولأن له أخًا كان يعمل أمينًا للشرطة

في المباحث الجنائية فقد اتهمها بقتله، جاءت الشرطة، حررت محضرًا. سجنت المرأة أربعة أيام، ثم جُدد لها خمسة عشر يومًا، وفي النهاية خرجت بضمان محل إقامتها، البعض يصمها بقرينة الشيطان التي ترافق كل واحد منا في خطواته، وتتلصص على الجميع دون أن يروها في جوف الليل. هى تستطيع التحول لثوان إلى طيف؛ إذ كيف تعرف كل تلك الأسرار عن الجميع دون أن تحضر عفريتًا كما يفعل العرافون؟ وكيف تحدس بكل الأشياء الضائعة، وكيف تكشف ستر المجرمين؟

ساعتها سأل «أكرم»: كيف تكون من الجن وهي تعيش بيننا؟ رد أبوه: ألا تعرف حكاية الملكين: «هاروت»، و«ماروت»؟! طوال عمره يُحتج عليه بتلك الحكاية، وما شابهها من الحكايات والنصوص الدينية التي تُخبر عن الجن لدرجة أنه كاد يخرج عن شعوره مرة مصطدمًا بمفاهيم زملائه عن الدين. بعدها فرح لأنه تمالك نفسه ولم يندفع: ليخبرهم بقناعاته كلها الآن. يلزمه وقت طويل ينظم فيه أولوياته، ويصوغ ما توصل إليه بشكل مؤثر.

في طفولته هنا رأى عربة «البوكس» تطفئ موتورها بالقرب من حجرتها الخشبية، ثم يهبط منها ضابط يدخل عندها بعض الوقت، يتهامسون عن الشرطة نفسها التي تريد أن تطفئ فضولها تجاه تلك المرأة دون جدوى، لا بد أنهم يعاملونها بحذر؛ لم تثبت عليها جناية واحدة.

الشوارع الرئيسية مضاءة بلمبات على الأعمدة، لكن ثم شحوب يعلو واجهات البيوت، الناس أنفسهم يروحون ويجيئون في سرعة ولهفة. هذا الشارع قديمًا كان فارغًا طوال النهار، ها هو بيتهم الطيني القديم قد صار منزلًا من ثلاثة طوابق. حدَّق فيه وهو يمر به مُتباطئًا.. الباب الكبير من ضلفتين، والشبابيك العالية بأسياخ الحديد الطولية التي كان يشاهد من خلالها الشارع أحيانًا، ويُشاكس أصحابه، بإلقاء الطوب، أو الكلام والاختباء وراءها. المصطبة، وهواء العصاري، والحنين إلى حكايات المغامرات بالليل. وُلدت دُموع في عينيه فمسحها بمنديله، ثم تلفَّت حوله هاربًا من العيون الفضولية؛ كي لا يبدو مثيرًا للشفقة.

في الصباح كانت تقابلك عربات الكارو تحمل رجلًا وزوجته، أو رجلًا يضع على عربته أكوامًا من «السباخ»، وفضلات المواشي الطرية المعجونة بالقش، فتزخم أنفك الرائحة الكريهة المميزة للشارع، ساعتها تكون في طريقك إلى كُتَّاب الشيخ «عباس شكر الله». تقاوم الرائحة بتضييق فتحتي أنفك بإصبعيك الإبهام والسبابة. تتفادى المشي على المياه الخضراء الزنخة، أو قِطع الفضلات التي تتساقط من حواف كل عربة وهي تترجرج بحمولتها على أرض الشارع الترابي غير المستوية. تفكر لو أنك في مكان آخر غير هذا، ثم تعود في الواحدة ظهرًا. يكون الشارع

الرازح تحت لهيب النهار ساكنًا من أية دبة قدم. الكلاب وحدها كانت تمشي بجوار البيوت. تشمشم المصاطب هنا وهناك.. قط يندفع من باب موارب مطرودًا إلى الشوارع الجانبية، وبفمه رأس سمكة مطبوخة. أحيانًا ترى بعض أطفال من سِنك وقد ذهبوا إلى دكان البقالة الوحيد المفتوح لشراء طلبات البيت، وبائع الملح الخشن أحيانًا معتمرًا قبعة بيضاء، يُنغم نداءاته بصوته القوي المبحوح: «أبيض يا مـــــالـح، الملح الأبيـــــض».

كنت تمشي حذرًا بجوار الحوائط، تهرب من بعض الرفاق الذين يسرعون ليضربوك، أو ليسرقوا قلمك، أو ممحاتك، أو «الشلن» الورق الذى حافظت عليه؛ حتى تضعه في حصالتك. تردد بينك، وبين نفسك بعض الآيات والأحاديث التي حفظتها. حين تدخل البيت تقابلك أمك باشة في وجهك، وهى تحتويك بعرقك وسخامك في حضنها السخي البارد، ودون أن تدعوك؛ لترديد ما حفظت. فقط بنظرة مبتسمة منها كنت تنهل من عقلك كل ما حفظت، فتكرره على لسانك بالترتيب. تضحك أمك وهي تقف؛ لتحضر الغذاء لكم، وفي باقي النهار لا يعبر شارعكم هذا سوى نفر قليل، وفي الوقت الذي ترى فيه أتباع «فُلك النور»، أو مقاطيعها، كما تقول أمك، تسرع لتتخفى بجوار الحوائط حتى تصل إلى البيت. أما إذا واجهتها في الشارع، وأحيانًا ما يحدث ذلك، تقف متسمرًا شاحبًا في مكانك. يكاد يُغشى عليك،

والمرأة السمينة الهائلة البيضاء كَتَل من دهن تحدق لك بعيونها الواسعة: «ما لك؟» فتصرخ مندفعًا في أي اتجاه.. في كل مرة كان باب أحد البيوت يُفتح فجأة، ينقذك من براثنها. تقسم بالله أمام أبيك وأمك أنك لن تخرج أبدًا إلى أي مكان حتى يذهبا إلى تلك المرأة يهدداها، إن لم تبتعد عن طريقك فليقتلاها. ألا يقتل أبوك الثعابين، والفئران أمامك؟ ألا تستحق القتل تلك العرَّافة التي قال فيها شيخ الجامع مرة بأنها من السحرة الكفرة المباحة دماؤهم؟

في الصباح التالي أخبرتك أمك أنها ذهبت فأخافتها. تخرج مصدقًا بسذاجة ما قيل لك؛ حتى تواجهها. تحدق فيك مرة أخرى في الشارع. كأنها اختارتك لتذبحك، وتطحن جمجمتك لتجار المخدرات أصحابها. كيف كنت تصدق أمك كل مرة بينما تحس بخوفها من المرأة كلما عبرت من الشارع؟! تُسرع؛ لتغلق الشباك بتأن، فلا تُسمع. تلتفت المرأة، تقنصها في محيط نظراتها، تظل واقفة وراء الخصاص تبعث نظراتها لقدم المرأة أينما ذهبت.

أمامه الآن شارع تتمدد عليه أضواء مريضة، وأبواق موتوسيكلات، وتكاتك، وعربات. كأنه لو ما أخذ حذره كل لحظة سيتعرض إلى حادث. يقول لنفسه: كيف سمحت الحكومة، أو المجالس المحلية للقرى بهذه الفوضى في شوارع هي في الأصل محدودة الاتساع؟!

منذ زمن حين قُسّمت لم يعمل حساب ذلك التطور. يذكر مدينته الآن، يقول إنها تشبه هذا العجيج الذي يعيشه وبشكل أبشع. «لم يعد هناك زمن آمن، ولا مكان مريح».

كان المقهى على بعد شارعين من هنا جديد. قديمًا لم يكن بـ «الكُور» سوى مقهى وحيد على الضفة الأخرى لترعة «الكُور» جنوب القرية. يعبر إليه رواده على جسرٍ عالٍ من الخشب. حجرة مدعمة بالخشب والغاب والطين ومسقفة بجذوع النخل، في بقعة بورٍ من الأرض على طرف «جُرن» واسع، أمام بابها الصفيحي بضعة كراس من خيزران. صاحبها «مروان الكوز» من صعاليك القرية. يرونه أحيانًا يطوي القرية على أتان بيضاء هائلة. خُرجاها القماشيان منبعجان، كانوا يتفننون في التنبؤ بما في جوف الخُرجين. في الليل يفتح باب المقهى الوحيد الذى يعطي وجهه للغيطان المترامية بأشجارها التي تشبه حراس عظام، أما ظهر المقهى فللبيوت التي تتوجس منه، رواده نفر قليل من لصوص البهائم، والعاطلين، وأصحاب الكيف، الكل يعامل صاحب المقهى في القرية كما يتعامل مع مجرم مُطْلق الصراح. كانت الحكومة «تطب» على المقهى كل حين، فيبتلع بطن سيارتها «الميري» بعض روادها، ثم ينفتح المقهى بعد أيام، بينما الصغار يلصقون بصاحبه مغامرات يكون هو دائمًا الفائز فيها، ذاك المغامر الأسطوري الذى لا يهاب أحدًا، صديقه القرش والمزاج ولا شيء غيرهما.

المقهى الذى ذهب إليه «أكرم» في نهاية الشارع الرئيسي على الجانب الآخر للرصيف، كان قد رآه وهو يهبط من سيارة الأجرة على الضفة الأخرى لمصرف المياه الذى يشق القرية نصفين، جراج أسفل منزل عال، بابه الصاج مرفوع للمنتصف. كل أربعة كراس بلاستيكية بينهما طاولة بلاستيكية نُصبت على جانب المصرف المائي، ويبدو أن صاحب المقهى ما زال يحتفظ ببعض ذوق وسط هذا العفن؛ لأن الكراسي تجاورها على الضفة نباتات زينة مزهرة، وأشجار «أكاسيا»، و«بونسيانا»، و«كافور» باسقة، تتحدى المشهد والرائحة الكريهة ببهائها. أما في باطنه فمجموعة صغيرة من الكراسي، وتليفزيون في الواجهة يعرض فيلمًا قديمًا. جلس في الداخل، أتى صبي المقهى القصير النحيل إليه، شرب شايًا، ظل ينقل عينيه بين الفيلم والمارة في الخارج، والطاولات المستغرقة في لعب «الدومينو»، و«الطاولة»، ونثر دخان «الشيش» في الجو المعبأ بفوضى الأشكال الدخانية المتداخلة.

اختلس النظر إلى الوجوه «لعل وعسى». حين يئس من معرفة أحدهم خرج من المقهى على مهل دافعًا الحساب، خطا في الشوارع وهو يتفادى هذا الكم الهائل من العجلات والأقدام والصراخ. دخل «السوبر ماركت» كان البائع الذى يرتدى جلبابًا أبيض، وشالًا من نفس اللون، يتنقل بهدوء بين بضاعته التي تملأ المكان، والطُرقة، بمحاذاته شاب مورد الوجه ذو لحية طويلة سوداء

ابيضت بعض خيوطها، وشارب محفوف، وعيون كبيرة ترسل لـ «أكرم» نظرات مستطلعة. لما كان البائع يأخذ وقتًا ليحضر طلباته فقد نظر هو الآخر إلى صاحب الوجه.

كانوا صغارًا في الكُتّاب، يأتيه كل صباح بحكاية جديدة مُخيفة، يجلسان في «الدّكة» الخشبية الأخيرة بينما تعبث أصابعهما بالشق الذى يزداد اتساعه كل يوم في حائط الخشب، والغاب المُملط بالطين. وأحيانًا يرسلان البصر إلى ما وراءه، فيشاهدان إوزًا ينقر أعواد البرسيم. في ساعات أخرى يسمعان خوار بقرة، أو أصابع امرأة تحلب ضروعها. كان كنزهما الصغير شيئًا سريًا. لا يشاركا فيه أحدًا آخر، قبل مغادرتهما يضعا أوراقًا ممزقة في الشق؛ حتى لا يراه أحد. كان الكُتّاب هو حجرة خارجية وراءها دوّار لصاحب البيت، يأتيان في اليوم التالي، ينزعان الأوراق ليتلصصا من خلال الشق.

قال الشاب وعيناه تلمعان بالمفاجأة:

- سؤال لو سمحت! أنت أكرم؟

- نعم. وأنت مدحت؟

أومأ «مدحت» برأسه فرحًا، ذراعاه حميمتان، رائحة عطره هادئة. دس يده في رسغ «أكرم» ليرافقه إلى منزله ويتذكران ما مضى، أخبره «أكرم» ما حدث هنا منذ ساعات، فأصر أن يسهرا سويًا في شقته، نهل «أكرم» من دخان بخور العود في حجرة الجلوس بش في وجهه، كان يتفرس فيما زاد على وجهه أو نقص. لم تزعجه سوى هذه اللحية الكبيرة. «مدحت» الذى أضاف لمخاوف «أكرم» من قبل مخاوف لا حصر لها يبش الآن ووجهه ساكن مطمئن كوجه ميت، كل صباح في الكتّاب كان يأتي إلى صاحبه بحكاية يظل أثرها لشهور ثم تنتهى وتبدأ حكاية جديدة..

لقد بحثا ذات صيف عن الثعبان الأعمى الذى يمشي في الليل فقط وهو يخرج الجوهرة من فمه؛ لتضيء له الطريق. مَنْ يسرق هذه الجوهرة سوف يسوق الجني الذي يسكن فيها، وإذا أراد بيعها فسوف يحصل من ورائها على آلاف الجنيهات على الأقل.

قال له «أكرم» وقتها وهما يقفزان فوق قناني الماء الصغيرة ويُنقّبان حول جذوع الأشجار الضخمة:

- طالما أن الثعبان أعمى فكيف يُفرّق بين الليل والنهار؟!

ساعتها أقسم «مدحت» أن خاله المُجند بالجيش قد رآه وهو عائد من إجازته، لكن لم يستطع أن يدخل يده في الجحر العميق ليأخذ الجوهرة. فرد «أكرم» بعيون مشتعلة بالقلق:

- كيف تنفع الثعبان الجوهرة وعيناه غائبتان؟!

- إن الجوهرة ليست مجرد زجاج ملون مضغوط، إنها جِنّي كما قلتُ لك.

يطمح «أكرم» منذ طفولته للإحاطة بلغة الثعابين، والكلاب، والقطط، والحمام، واليمام، والهداهد، والنمل، والنحل، والدبابير، والحمير، والبقر، والجاموس، والحوائط، والشبابيك، والأبواب، والهواء، والسحاب، والمطر.

يطمح إلى مُلْك كسليمان. يقول لأحدهم: ائتني بكذا، فيأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه. هذا لا لرغبته في الامتلاك فقط، وعيش كل المغامرات، بل للخلاص من مخاوفه: لذلك أسرته جوهرة الثعبان الملونة. سعى هو و«مدحت» في الخرائب للبحث عنها، ورغم أنه كان يخاف من الصراصير، والأبراص، والضفادع، والجراد، وفرس النبي، فقد تشجع وهو يمشي مع «مدحت» في غيطهم ذي السطح المجعد اليابس واضعًا قدمًا مكان قدم على الجسر العالي؛ كي لا يسقط في المياه، ويعثرا على الثعبان، أوقات كان يقابلهما ثعبان ذو جلد أصفر مبرقش يلمع على حواف الجسر، فيمسك كل منهما بحجر، وقطع يابسة من الطمي؛

ليقذفاه بها. قتلا عدة ثعابين صغيرة، لكن «مدحت» يخبره في كل مرة أنها ليست كنزهم المُبتغى؛ فهي مجرد ثعابين «شراقي». أما الثعبان الأعمى صاحب الجوهرة فهو طويل سميك كوحش خرافي، حينما فشلا في العثور على أثر له خلال عدة أسابيع أخبره «مدحت» أنه سأل خاله، فقال له: إن مثل ذلك الثعبان لا يظهر إلا في ليلة حالكة السواد، هكذا خطَّطا للخروج سرًا ذات ليلة سوداء بلا قمر؛ ليعثرا على الجوهرة التي سيتقاسمان قوتها، فيقتل «أكرم» خوفه، ويحقق كل ما يريد بقوة الجني وهو المال الذي سيجعلهما من الآن حتى نهاية الحياة أثرياء يسعى الأهل، والجيران، والبلدة كلها إلى استرضائهما. أما «مدحت» الفتى الناحل ذو العيون الجاحظة المجهدة فقد فاجأه بخطة محكمة ذات مساء، سيلعبان مع أصحابهما لعبة «الاستغماية»، ثم يتخفيان عن العيون في مكان واحد، ليفتشا الخرابة الكائنة وراء المسجد الكبير بكشَّاف وقفاز سطا عليهما «أكرم» من درج أبيه؛ ليعثرا على الثعبان، ويسرقا الجوهرة. «مدحت» في اللحظة الأخيرة وقبل أن يدخلا العتمة المهيبة الفاصلة بين الأرض البور وراء الجامع القديم ومقابر القرية قال له بصوت يرتجف:

- لن نستطيع الذهاب بمفردنا أبدًا؛ لأن أبو رِجْل مسلوخة يظهر في تلك الليالي.

سأله «أكرم» والحنق بادٍ في نبراته:

- ما وصفه؟

- رَجُل عملاق، جسده كله أحمر كأنه محروق للتو وهو يمسك بيده سيفًا كبيرًا، ويبخ النار فيمن يقابله؛ حتى يلهيه، ثم يطيح برقبته في الحال، فتسقط في الترعة.

رد «أكرم» بإصرار:

- إننا سنكون بعيدين عن الترعة.

- لكن ندَاهتها ستسحبنا واحدًا تلو الآخر.

كان «مدحت» سريع الرد لا تعييه الحيل، ولعله لم يكن يبتغي من وراء حكاياته لـ«أكرم» مغامرة ما سوى مغامرة الحكاية نفسها وتحولاتها، وهو ما اكتشفه «أكرم» بعد ذلك بوضوح، ولفترة طويلة ظل يحلم بجوهرة الثعبان الأعمى التي لن يمكنه الحصول عليها إلا بامتلاك قوة «عنترة بن شداد»، وجسد جبار كالمارد الأخضر، حتى يئس فتحول حلمه يقظة تحت بطانيته التي يغطي بها رأسه، فلا ينفذ منها الهواء نفسه، إلى جوهرة أخرى، بيضاء ومسطحة، يرى من خلالها كل أفلام «إسماعيل ياسين»، و«فريد شوقي»، و«توم وجيري»، و«السندباد». تليفزيون صغير في حجم راحة اليد ذلك الذي يضعه الآن في جيبه في هيئة تليفون محمول متطور.

يفكر الآن.. هل الذين اخترعوه كانوا مثله بالضبط خائفون في طفولتهم من سيرة العفاريت؟! يدسون رؤوسهم تحت

البطانية التي لا تظهر شعرة واحدة من رؤوسهم، ولا ظفرًا واحدًا من أقدامهم؟! هل كان هواء مغامرات الطفولة وأسئلتها هما ما أصاباه بالأرق بعد ذلك طوال عمره حتى الآن، فلا ينام إلا بعد أن يطوف بعدة عوالم، أو يلتقي في خياله بحبه الوحيد الباقي؟!

لماذا لم يبادر مثلهم باختراع أي شيء يحبه؟ لقد اكتفى فقط بإعادة الحكايات التي يسمعها، أو يحلم بها. ومن تحبها نفسه تزوجت، ورحلت مع زوجها إلى خارج «مصر» كلها.. وهو تزوج وطلّق.

رن تليفون «مدحت» بنغمة أغنية: «طلع البدر علينا» لـ «مشاري راشد».

السلام عليكم.

ابتسم مرة أخرى. قال أكرم وهو ينظر لصاحبه القديم: «كم أصبحت تحب الضحك يا مدحت وقد تختفي عيناك الصغيرتان خلف جفونك المتورمة، بينما كنت قديمًا تفتح عينيك كـ «أشكيف» «ألف ليلة وليلة» الذي كنا نشاهده في شهر رمضان، وأنت تحكي لي حكاياتك الشيقة المخيفة. ما آخر حكاياتك يا صديقي؟».

قاطع «مدحت» أمنيات صاحبه قائلًا:

- بعض الإخوة في الله سيزورونني الآن، واحد منهم كان صاحبًا لنا صفًا بصف في المرحلة الابتدائية.

دون أن يرن جرس الباب فتح باب الشقة، ناداهم فدخلوا، ثلاثة. قال «مدحت»:

- سيد عبد الحميد.. زميلنا.

احتضن «أكرم» وقد عرَّفه «مدحت» به.

كان «أكرم» قد طَوَّحَ بفكرة رواية كتب فيها بعض الأوراق، خلفيتها: الشهر الأول بعد الإطاحة بـ «مبارك» من الرئاسة؛ لأنه أدرك أن تسارع الأحداث، وتقلبها لن يجعله يقبض على اللحظة؛ ليصوغها بعمق، وتَمَهل. وامتنع عن أية كتابة تنطلق من الميادين إلى الأوراق في سنوات التحولات تلك. توتر «أكرم» وأخذ يبحث عن لحظة مناسبة للخروج، والعودة إلى السكن مرة أخرى؛ كي يستيقظ في الصباح إلى مدرسة «مصطفى كامل» الابتدائية. تنحنح ليقف. قال له «مدحت»:

لست غريبًا، ثم إن لقاءنا لا يجب أن ينتهي بسرعة هكذا.

رد أكرم:

- أنا مُقَصِّر، ولكن لي عذري.

- مهما حدث. مئة كيلومتر حتى أو أكثر لا يجب ولو مرة واحدة أن تكون حائلًا بينك وبيننا. ألا تذهب إلى المصايف؟!

وقال «إبراهيم»:

- كل هذا العذاب لا يساوي لدغة واحدة من لدغات الثعبان الأقرع في القبر لكل المقصرين.

كان استنتاجه غريبًا، وكلمته مباغتة. واتت «أكرم» فكرة جديدة: «الإنسان والثعبان». ألا يستحق هذا الثنائي رواية هائلة تروي علاقاتهما منذ القصة القديمة عن «آدم» و«حواء» والجنة، حتى دخول الجسد القبر ليستحيل ترابًا مرة أخرى؟

تعلَّم ثم سافر، ثم جاءه جواب العمل صدفة. قال ليُموه على جزعه المفاجئ. أومأ «مدحت» بعلامة رضا وكأنما قَبِل عذره، والحقيقة أنه كان يلوح له: ليشاركهم همومهم. كان «علي» يقرأ من ورقة حجم المال الذى جمعوه لحالات هذا الأسبوع: فقراء، أرامل، يتامى.

سألهم «أكرم» مستنكرًا:

- أين الحكومة من تلك الحالات؟!

أشاح «مدحت» بيديه في حركة لا إرادية. بينما ابتسم «إبراهيم» متحدثًا:

- يا أستاذنا! حضرتك تعيش في مصر أم في فرنسا؟!

لم يكن في الكلام أية مسحة من السخرية، لكنه تذكر مسرحيات «الإخوان» منذ زمن في الجامعة.. قبل أن تبدأ المحاضرة بنصف ساعة على الأقل يدخل مجموعة من الطلبة. فقراء. ملابسهم الباهتة تقول ذلك. نظرة وجوههم التي يخفونها خلف صلابة متجهمة هى الأخرى تكاد تصرخ بذلك. يبدؤون مسرحية عن مهازل الأمم المتحدة، والانتفاضة الثانية، والتخاذل

العربي. يتسلل بعض الطلاب من «البنشات»، والكراسي الخشبية إلى خارج قاعة المحاضرة. البعض يتفاعل ويضحك ويصفق. في الكراسى الأخيرة كان يدخل في مناقشات حول فائدة مسرحيات ارتجالية مباشرة، فيقول أحد الطلاب بحدة: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥﴾. لاحظ مع تكرار تلك الظاهرة وجود أعوان لهم من الطلاب موزعين على الصفوف، وهم يتحاورون بجدية مع الباقين الذين يرغبون في الفرار من ذلك الجو المشحون بالسياسة.

في الاستراحات، وحدائق الجامعة كانت أُسرة «النور» الإخوانية تحاول اجتذاب الجميع إلى صفوفها، ليس الجميع بالضبط، من تظهر على وجوههم معالم الحيرة، الطيور المتخبطة بين النزق والالتزام.

كانوا أربعة أصدقاء، يجلسون على الاستراحة الجرانيتية في الحديقة التي تتوسط مبنيي الكُلية العاليين. وكانوا يتحاورون في كل ما يشاهدونه في الشارع وعلى الشاشات. أتى إليهم اثنان؛ ليطلبا منهم المشاركة في مظاهرات تندد بالعدوان الصهيوني على غزَّة، وجمع التبرعات للفلسطينيين المنتفضين، والطلب من الحكومة المصرية التدخل الفوري لإغاثتهم، والدفاع عن الأقصى. ساعتها كانت نقمته فائرة على الحكومة المصرية التي ألغت التكليف الحكومي لكليتهم، والفساد الذى بات يُشهر لسانه

في وجوههم ليل نهار. وخرج.. مرة، اثنتان، ثلاثة.. حتى تعب من المراوغة.

اجتمعوا ذات مرة في مسجد رعاية الشباب بعد صلاة الظهر، أربعة مقابل ثلاثة. قال «أكرم» متحمسًا:

- ما رأيكم في الحشد لمظاهرة تندد برفع التكليف عن كليتنا، والتنديد بالفساد، والخصخصة التي سندفع ثمنها قريبًا جدًا من أعمارنا؟

رد عليه «أحمد ثابت»:

- قضيتنا الأم هي القدس. لو استرددناها من اليهود سينصلح حال العرب جميعًا.

قال «أكرم»:

- إن تحرير القدس هدف بعيد، أما نار الخصخصة، والفساد فنكتوي بهما كل يوم.

قال طالب الطب الذي كان وجهه يبتسم له في نفاد صبر:

- يا أخي، طالما أن الدّين ليس هو رقم واحد في اهتماماتنا فإن حالنا لن ينصلح حتى يأتي الله بجيل إيماني جديد.

رد «أكرم»:

- ليس هناك عصر مثالي كان الدين فيه كل شيء.

ولمح نظرة احتجاج على وجوه معظمهم، فقال:

- أقصد أن أهالينا لا يشربون الخمر، أو يلعبون القُمار براتب

الشهر الذي لا يكفي لمصاريف أسبوع واحد، فيضطرون إلى عمل آخر. نحن أيضًا، نعمل في الإجازة الصيفية؛ لنوفر بعض مصاريف دراستنا.

قال «علي سمير» مؤمنًا على كلامه:

- كلام سليم. ولن نكون مسؤولين عن باقي المجتمع إذا أصلحنا أنفسنا.

قال طالب الطب بهدوء:

- لايعلم الخير إلا الله، ولن تشترطوا على الله أن ينقلب حالكم إلى الثراء طالما أنكم بدأتم في الالتزام بالفروض، والنوافل، والخير.

قال «علي» محتجًا لأول مرة متشجعًا بما قاله «أكرم»، وكان قد أخبره أنه لم يعد يطيق البعد عن صاحبته أكثر من ذلك:

- كيف إذًا تقولون إن الله سيصلح حالنا مع الالتزام؟!

استأذن «أحمد ثابت» من طالب الطب، وآخر كان زميلًا لهم في نفس دفعة الدراسة؛ ليتكلم هو:

- يا أخ «علي»، الله وحده يعلم مصلحتك قبل أن تعلمها أنت؛ فقد تظل فقيرًا؛ لأن حكمة الله ترى صلاح الأمة في فقرك. ألا تذكر حكاية «ثَعْلَبة» ذاك الذي طلب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغنى فكانت جِمَاله وأغنامه تسد عين الشمس.. ومات مانعًا فريضة الزكاة والعياذ بالله؟

اتكأ «أكرم» على يديه ليقف، ويغادرهم ببطء بينما ينقل لهم رسالة احتداده كاملة وكأنه يقطعهم بسكين ثَلم:

- الحقيقة أنني كرهت المراوغات؛ فطالما أن مصلحتنا لا نعرفها فلنجتهد؛ لنصل إلى ما نريد، وطالما أنكم تزايدون بموضوع القدس؛ كي لا تدخلوا في مواجهة مباشرة مع هذا النظام فلا مكان لنا بينكم.

ثم خرج من المسجد للمرة الأخيرة. تبعه «علي». بينما ظل اثنان من الأصدقاء معهم، وطوال السنة الأخيرة لليسانس كانوا يتلافون النظر إليه، لإلقاء السلام من بعيد لبعيد حتى.

أصر «مدحت» أن يرافقه حتى محل سكنه. في الطريق قابلهم رجلٌ طويل نحيل، ذقنه ذات الخيوط البيضاء المشعثة تصل حتى صدره، توقف مبتسمًا وهو يسلم على الجميع ويحتضنهم طابعين قبلات ثلاث على كتف بعضهم البعض. أشار إليه «مدحت» مُعرّفًا:

- صديق الطفولة أكرم سليمان، هنا في مدرسة مصطفى كامل الابتدائية.

قال العجوز بنبرة خشنة لم يكن وقعها غريبًا على أذني «أكرم»، ولا وجهه الذى ازداد عبوسًا تحت الذقن الهائلة: الشيخ إبراهيم عبد الحكم. سلمت نفسك من كل سوء بالكُور.

سلم «أكرم»، فردَ العجوز بحماس واحتضنه. كادت الضحكة تفلت من فم «أكرم» حين برقت الذكريات مرة واحدة في رأسه وهو يوشك أن يشير بأصبعه إلى وجهه قائلًا: «برهومة». كانوا صغارًا بأحلام صغيرة، ونزق يتجاوز حدود المعقول، وكان ظهور فرقة موسيقية كل أعضائها من «الكُور» حدثًا فريدًا. «برهومة» مدير الفرقة أطلق على فرقته اسم: «الجوع كافر». قال أبوه وقتها: «شباب ضائع»، لكنه لم يُفوّت فرصة واحدة لمشاهدتهم والتندر

بهم حينما يمرون من شارعهم وهم يلفون في دائرة متحركة حول العروسين؛ لزفافهما.. هم خليط متجانس من حِرَف، ومهن عدة وفي العمر نفسه تقريبًا. شكلوا الفرقة الموسيقية. «منصور»: عازف «المزمار». فلاح فشل في المدرسة، في الثامنة عشرة، أو العشرون، قصير، عريض الكتفين، له أنف طويل معقوف كالبومة، وجهه أبيض، لكنه مليء بخنادق الجُدري، ضحكته قرقرة المياه في قُلة الشرب، ومشيته متطوحة سريعة كأراجوز. «ممدوح»، و«غالي» في السنة الثالثة من دبلوم التجارة، «ممدوح» نحيل طويل كعود البوص. أبرز ما فيه نظرته الحادة الثابتة على أحد، أو شيء ما، كأنها متوقفة عن الإبصار، وابتسامة ساخرة تفرد وجهه الخشن اليابس القمحي. «غالي» وجهه أسمر، وشعره أسود كليل حالك، لكنه ناعم مسترسل على ظهره، يصل حتى كتفيه. «الفقاري»: نجار في ورشة صغيرة، متوسط الطول والجسد، وجهه أبيض، وعينه اليسرى حولاء. أما «محمدين» فحداد، له ذقن صغيرة يحددها لدى الحلاق؛ ليشبه ممثلًا أمريكيًا أسود في أفلام الأكشن في ذلك الوقت، كبير الرأس، نظرته صلبة، لا يضحك إلا نادرًا، لكنه كما يُحْكَى عنه كثيرًا طيب القلب. لعل تكشيرته الدائمة جزء من تقمص نفس دور الممثل الأمريكي بالضبط. «عوض»: مُحصّل على سيارة «ميكروباص». أبرز ما فيه عيونه الخضراء الواسعة، وبشرته القمحية، وشعره المجعد الملفوف

الذى يصنع إطارًا هائلًا حول وجهه. «برهومة» نفسه كان صاحب محل خردوات، وملابس حريمي. أكبرهم سنًّا، وأضخمهم جثة، كان يعمل من قبل طيّالًا في فرقة بـ «بلقاس»، وحينما أُنكر دوره في الفرقة، وأُهين أكثر من مرة فكر أن يصنع فرقته التي كانت حدثًا في ليل القرية الصامت.

حينما كانوا يقابلونهم في شارعهم طوال النهار وهم يؤدون أعمالهم النهارية يحدقون في وجوههم متأملين ذلك الوهج الذى يحظون به في جلسات الأطفال الليلية على مصطبة الجامع الكبير. حينما يمرون أيضًا في شارع، ويرون أحدهم يؤدي عمله، وهو يهيم برأسه، وجسده مع أنغام، وكلمات أغاني المسجل الموضوع على حامل في ورشة يقفون ليراقبوه. لا يُشوّح لهم ايهم بيده، وهم على بعد خطوات منه يبتسمون، كانوا يقربون الأطفال منهم، في أحيان كثيرة يسألونهم عن آخر حفل زفاف حضروه لهم، وعن الأغاني التي يحبونها: لأن غالبية أطفال الكُور كانت تحضر كل الحفلات ابتداءً من موعد نصب الفراشة بعد الظهر، إلى آخر الليل، متجولين بين الكبار رجالًا ونساءً، لذا فهم المقياس الصادق لرد فعل الناس في كل حفل. «برهومة» كان مُهابًا، لكن حين يلقي عليه أحد المارة في الشارع سلامًا ملحقًا به لفظ «يا فنان» يزيح الباب الخشبي الصغير الذي يفصل «البنك» عن الداخل، ويخرج ليرد التحية بأحسن منها، بل ويعيد كلمة: «تفضل والله» أكثر من مرتين.

كثيرًا ما كانوا يلفون الشوارع حتى تكل أقدامهم، فيصطنعون حجة؛ ليجلسوا بجوار محله أثناء الليل. وإذا خرج إليهم أحد أعضاء الفرقة يخبرونه أنهم تعبوا من المشي، وأنهم يستريحون، وبالتأكيد لن يصدقهم، لكنهم لم يخرجوا أبدًا إلا لشراء علبة سجائر، أو «باكو» شاي، وحينها ينظر لهم الخارج من الدكان الموارب وفي عينيه ابتسامة تشجيع مشيرًا لهم بيديه أن استمروا في المراقبة المُعجبة لتنقلوا الأخبار والأساطير هنا وهناك. يسمع الأطفال الأنغام النشاز التي تجرب بها الفرقة آلاتها قبل أن يندمجوا جميعًا في لحن متفق عليه، ثم «يلعلع» صوت «الفقارى» بأغنية لـ«وردة»، أو لـ«أم كلثوم»... يتعجب الجميع من ميلهم إلى الأغاني النسائية؛ لتجريب أصواتهم قبل الحفلات. «الكُور» التي كانت كل جديد تصده، بسخرية فجة، ومطاردة لا تكل، استسلمت في النهاية لفرقتها الموسيقية الناشئة.

لا يفوت حفل زفاف إلا وترى فرقة «الجوع كافر» فيه. الحفلات الصغيرة التي كانت تقام فوق مقطورة جرار منصوبة بعرض الشارع مفروش عليها مفرش، وكرسيان مرتفعان، وفوقها أضواء. والحفلات الكبيرة التي كان أصحابها ينصبون لها مسرحًا خشبيًا كبيرًا يأتي في شكل قطع كثيرة، وأعمدة مطلية بالأخضر، والأحمر، والأصفر، أضواء «النيون»، والبوابات على بعد شارعين من الحفل. كانت الفرقة تشارك فيه أيضًا. ينصب أصحاب

الفراشة مسرحهم في اليوم السابق لموعد حضور الفرقة الكاملة من «المنصورة»، أو «بلقاس»، أو «طنطا»، فيقام حفل الحِنة بجوار بيت العروس، تُحييه فرقة «الجوع كافر» مقابل نصف «النقوط» الذى يجبرون الناس عليه بالتحيات، والسلامات التي تقطع الأغنية كل دقيقة.. والحقيقة أن أغنيتين فقط، أو ثلاثة هي ما يسمعون وسط هذا الاقتطاع الذى يقوم به «منصور» كل حين في «الحِنة»، لكنه ينطلق في حفلات الزفاف الملمومة. كان يمسك ميكروفونه الأسود على المسرح، ويُمرّر عينيه بين الجلوس، ثم يضغط على كف المغني السائبة قائلًا: «الكُور.. أهالي الكُور.. كفر أبو دقيق.. الكتاكتة.. رجّالة شربين.. بلقاس.. المنصورة.. أجدع ناس. وسمعني أحلى سلام». بعد فاصل آخر يحيي فيه الرجل الذى صعد إلى المسرح: ليحيّي العروسين بجنيه، أو اثنين، أو حتى خمسة، وعشرة في أحيان قليلة. حين تكون هناك راقصة يحاول التحرش بها على المسرح. «منصور» الذى كان قريبًا من بيت «أكرم» في ساعة العصاري يخرج تحت أول عريشة مجاورة للبيوت من ناحية الأراضي الزراعية، ويتدرب على المزمار. يقول أبوه: «من صاحب هذا النعير؟!» يضحك وهو يستذكر دروسه؛ لأنه يعرف أن أباه لا يقصد الإهانة، بل يقصد المداعبة، فهو يعرف «منصور»، ويسلم عليه بحفاوة، وتشجيع غالبية الوقت. كان «منصور»، أيضًا «شاويشًا» لبيع البهائم «الفطيس».. حين تكسر

جاموسة، أو بقرة وهي عائدة أمام مالكها إلى الدوار، أو تنزلق في الترعة وهي تهبط المنحدر الأسمنتي لتشرب، فتكسر، أو يستيقظ صاحبها صباحًا، فيوقظ بهائمه لتسرح معه إلى الغيط، فيجد واحدة تحتضر، يفزع إلى الجزار؛ ليذبحها، ويُشفّيها، ويعلقها على ثلاثة أعمدة في وضع مثلث متساوي الأضلاع؛ أطرافه مدكوكة في الأرض برؤوس أسهم حديدية، ونهاياته تتلاقى في رأس عالية بينها حلقة، يهبط منه جنزير قوي، يرفع البهيمة المذبوحة الجاهزة للبيع. ساعتها يكون من الواجب الثقيل أن تقوم الحارة، أو أهل المصاب بشراء كيلو من اللحم. يذكر «أكرم أن أباه كان يفعل ذلك»، وكان «منصور» يحضر ميكروفونه، وسماعاته. يقف بجوار الذبيحة مناديًا ومحفّزًا على شرائها.

كل فرد من أعضاء فرقة «الجوع كافر» كان يقضي عمله بجد طوال النهار، وفي الليل حين يسمعون نداء الواجب المقدس فإنهم يتركون كل شيء؛ ليلبسوا قمصانهم الحمراء «الملعلعة» وقد علق على ظهر كل منها اسم الفرقة على دائرة سوداء من الحرير، وبنطالًا أسود، وحذاءً لميعًا، يتقدمهم في الشارع وقتها أطفال مثل «أكرم» وهم يرقصون بصخب: «فرقة الجوع كافر وصلت يا بلاد».

قال الشيخ «حمدان» على المنبر ذات مرة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ..﴾ فرقة تسمي نفسها، والعياذ بالله «الجوع كافر». شباب من الكُور. مستقبلنا.. ولا بد أن

ننصحهم.. نعم الجوع قاتل، لكن وصف الكفر والإيمان في فرقة نشيع الطبل، والزمر في الأفراح والبيوت، لهو شيء مستجد على أخلاق قريتنا الهادئة.

زادهم التشهير شهرة، فطارت أخبارهم إلى خارج القرية، صار للفرقة من يدافعون ويتعاطفون معها إثر هجوم داعية ظل «أكرم» يتعجب حتى الآن كيف كانت تسكت عليه وزارة الأوقاف وهو يكلف واحدًا يكتب له خطبة هو نفسه لا يجيد قراءتها؟

أما ليلة قدوم مغنية وراقصة شهيرة من طنطا واختيارها لطبلة «برهومة» وتقاسيمها لترقص عليها حدثًا أنعش الثقة في نفوس أهل القرية المتابعين، فقد تحولت الفرقة من فرقة هواة مارقين إلى فرقة إقليمية معترف بها لدى الكبار في «الكار». رأس «أكرم» يفتك به الفضول، سأل مدحت:

- أين منصور؟

فهم مقصده فضحك بتسامح قائلًا:

- منصور هداه الله منذ زمن طويل، وقد سافر مؤخرًا للجهاد في سوريا مع الجيش الحُر.

انكمش «أكرم» شاعرًا باختناق وأمسك عبرة كادت تهوي من عينيه، فقال:

- ومحمدين؟

كان «مدحت» يفهم لمحاته فرد بسرعة مُنهيًا الحديث:

- محمدين ربنا يهديه، قبض عليه أكثر من مرة بتهمة حيازة وتوزيع حشيش وبانجو، والعياذ بالله، تيسير الزنا.

لم يُرد أن يسأله عن أكثر من ذلك، وقد أحس أن الزمن يُخرج له لسانه.. كانوا قد أنهوا الطريق إلى منزل «محمد عثمان»، فسلَّم «أكرم» عليهم مرة ثانية واعدًا «مدحت» أن يتقابلا في القريب. كانت أصوات الغناء والموسيقى تسبح في الهواء قادمة من حفل زفاف في الشارع الآخر، ضحكات الراقصات واعادتهن لبعض كلمات الأغنية مع التأوه تملأ الأجواء بالإثارة والاحتقان، تراجع «برهومة» وأخفى وجهه في الأرض، وتسللت يده اليمنى إلى جيب جلبابه الأبيض الجانبي فأخرجت سواكًا يحك به أسنانه بتوتر بينما خطوات «مدحت» تتراجع هي الأخرى مودّعًا «أكرم» مع رفاقه الآخرين الذين غطسوا في العتمة من جديد.

-٨-

دفع البوابة الحديدية الصغيرة إلى سلم يصعد للطوابق الثلاثة العالية. كان النور مطفأً، فأشعله وما إن صعد إلى أعلى وأصبح بجانب باب الشقة فتحها حتى أغلق النور، ودخل إليها. كان قد ترك نور الصالة متوهجًا. خلع حذاءه بجوار الباب من الداخل. رمى جسده على الكنبة الجانبية في الصالة. أغلق عينيه بعض الوقت، فأخذه رأسه في دائرة كاملة رغمًا عنه لدرجة أحس معها أن روحه تُسحب منه، وأن جسده يهوي إلى عمق سحيق. «اتنتر» مفزوعًا. أمسك برأسه بين يديه. تجرع ماءً كثيرًا من زجاجة على الطاولة بجواره، ذهب إلى المطبخ، كل شيء كان مرصوصًا في مكانه لا يزال، سمع حفيف شيء يتحرك، هناك بالتأكيد كائنات أخرى هنا بالشقة من الزواحف والحشرات، يكره الصراصير والأبراص والفئران والسحالي والثعابين، وكل الأشياء الأعجمية التي لا تنطق، يخاف من مشاركتها مكانًا واحدًا ينغلق بابه عليهما.

«هل تكره تلك الأشياء فقط؟

لا.. كائنات آدمية كثيرة دفعتني إلى كراهية الحياة ذاتها.

عليك أن تقف على قدميك ولا تُهزم.

كلنا نفحة صغيرة وموجزة في عمر الكون الواسع الكبير.

هناك فرقٌ - طبعًا - بين أن تعيش منتعشًا بإحساس الفوز، وبين أن تنطوي مجروحًا بالهزيمة.

أعرف. حينها تكون الثانية بساعة. والساعة بيوم، واليوم بعام كامل من الألم».

توقف عن اجترار آلامه، وضع ماءً في الكنكة الصغيرة، وضع السكر، وكيس الشاي في الكوب الزجاجي الكبير، عاد إلى الصالة وكوب الشاي في يده، هدير العجلات الحديدية يضج على جوانب رأسه، يريد أن يضبط منبه التليفون المحمول على السادسة صباحًا؛ كي يُحضّر نفسه لليوم الأول في المدرسة. إذا كان هناك ما فاته في مدرسة «الأمل» فلن يكرر نسيانه هنا. كأنه سيبدأ حياة جديدة، سوف يترك فيها قيمة كما فعل أستاذه «سعيد عبد الغفار» الذي اعتبره مثله الأعلى. كان الأستاذ لا يُفرّق بين طالب مُمَيَّز، وطالب ضعيف المستوى، بل كان يحنو على الطلاب منخفضي المستوى كثيرًا، يسألهم أسئلة بسيطة، يساعدهم في حلها، ثم يأمر كل التلاميذ بالتصفيق لهم، كان ينتهز فرصة أن تكون كراسة أحدهم نظيفة منظمة؛ حتى يفردها أمام الفصل معلنًا أنه يجب على كل طالب أن تكون كراسته نظيفة منظمة كهذا التلميذ المحترم، كانوا يحتفظون بالضحكة في قلوبهم؛ فالكل يعرف أنها

لعبة تشجيع، حتى التلميذ المتوسط أو الضعيف نفسه، لكن وهج النشوة يصّاعد في عينيه المرفوعتين وهو ينظر للجميع من أعلى. قذرٌ من التواطؤ مع ما يفعله الأستاذ كان يتشكل داخلهم كل يوم، فيمارسون معه اللعبة بجدية، يذاكرون يصنعون أغلفة مزخرفة من البلاستيك للكتب المدرسية والكراريس، ويتسابقون في إرضائه بالانتباه لكل كلمة يقولها، حتى الطلبة ضعيفو المستوى كانوا يذاكرون مادة اللغة العربية ويحبونها. عصاته لم تكن طويلة ولا قصيرة. كانت عصا خضراء بلاستيكية. لم يجربوها إلا نادرًا. وكانوا يتجهزون لمسابقاته التي يصنعها بين ثلاثة فرق: فريق من كل صف في مادة اللغة العربية، يوزع جوائزه التي يحتفظون بها دائمًا. مساطر عليها رسوم جميلة، حين تميلها على جانب تظهر رسومًا أخرى جميلة خلفها، برّايات كبيرة مُشكّلة على هيئة أرانب، وضفادع، وقطط، وممحاة ملونة مضلعة وكبيرة، وأقلام رصاص مخططة بالأصفر، والأسود. هداياه لم يجدوا مثلها في الغالب في الدكاكين التي تجاور المدرسة. لعله يشتريها من المدينة حين يذهب هناك في مشاوير مخصوصة.. كان «أكرم» ينتظر حصة المكتبة: ليحكي لهم الأستاذ قصة جديدة، لكن قصة «إبراهيم والقصر» لم تغادر رأسه أبدًا، وحين قرأها بعد ذلك في «ألف ليلة وليلة» لم تبهره عذوبتها بالدرجة نفسها التي حدثت في ذلك اليوم وهو في الصف الثالث الابتدائي.

الوقت بعد الفُسحة على ما يذكر؛ فوجوههم لا تزال حمراء محتقنة، ونقاط العرق تسيل في بطء على جبهته وظهره، وطعم الطعمية في السندوتشات النحيلة التي يأكلها لا تزال على لسانه. جلس الأستاذ «سعيد» على كرسيه أمام السبورة، ثم قرأ صفحة، وحكى لهم، وقرأ أخرى، وحكى لهم: «كان يا ما كان فتى يدعى «إبراهيم». ابن وحيد لتاجر من أثرى أثرياء بغداد. لم تلد النساء شبيهًا له في وسامة وجهه، ومتانة جسمه وتناسقه، وعذوبة صوته وذكائه. مات أبوه وهو مسافر بتجارة له من بغداد إلى الشام على يد قُطّاع الطُرق، بعد شهور قليلة ماتت أمه، تركا له ثروة هائلة في قصرٍ كبير كقصر استراحة الخليفة، وخانًا للقماش، وقطع ذهبية وفضية في أكياس؛ لأنه كان ابنًا وحيدًا فلم يجبره أبوه على عمل أثناء صباه. كل طلباته كانت مجابة بمجرد التفكير فيها؛ حتى نشأ مُحبًا للعب والسهر والبذخ مع أصحابه من أبناء الأعيان والتجار.. ذات يوم وجد «إبراهيم» نفسه عاريًا من الأهل. أمامه هذا الخير الذى تصور أنه لن ينفد أبدًا. ظل «إبراهيم»، الذى لا يعرف التجارة ولا يحبها، يصرف ببذخ مع أصحابه؛ يقامر، يسكر، يصاحب الفتيات السيئات حتى قلّت البضائع في خانه، فصرف بعض العمال، ثم اضطر إلى بيع الخان بعد ذلك.. باع جواريه وخدمه، ثم باع قصره في النهاية، لما بحث عن صديق الشدة تَهْرُبَ منه الجميع بحجج كاذبة، اختفوا من طريقه، لبس

ملابسه على اللحم. مشى يتخبط في الأحراش والغابات. يأكل من نبات الأرض كما تأكل الحيوانات، يستحم في البحيرات الصغيرة، وينام تحت الأشجار إلى أن قادته قدماه ذات ظهيرة إلى قلب غابة متشعبة وهو محاط باليأس. كأنه كان يدفع نفسه لحمًا شهيًا لذئب، أو أسد جائع، فينهي حياته؛ ليتخلص من ألم الغدر الذي لاقاه في بلدته.. فجأة رأى أمامه عجائز يرتدون جلابيب بيضاء، لحاهم على صدورهم بيضاء كالنهار، تقطر ماءً من بكائهم جميعًا في وقت واحد، فسألهم: ما يبكيكم؟. قالوا: لا يمكن أن نخبرك؛ فأنت ما زلت صغيرًا فيما يبدو ولن تدرك مقدار ألمنا. أخبرهم «إبراهيم» أنه ليس صغيرًا. إنه في الثلاثين من عمره، رأى من الدنيا كل وجوهها حتى شاخ قلبه وإن ظل وجهه كهلًا صغيرًا. قالوا له: لا يمكن أن نحكى لك أشياءً لن تصدقها: لأنك لم تجربها، لكننا سنقبل بك خادمًا لنا مقابل أن تأكل وتلبس وتعيش حياة هنيئة. وافق «إبراهيم»؛ ليكتشف أسرارهم؛ فقد ملأه الفضول نحو أسرار الحياة الممتعة مرة أخرى. قالوا: تعال معنا. دخلوا قصرًا هائلًا. قالوا: كل أبواب، وحجرات القصر أمامك سوى حجرة واحدة، إياك أن تفتحها. نازعت «إبراهيم» نفسه بعد أيام طويلة من خدمتهم، ففتح الباب. وكأن باب الجنة كان هو ذلك الباب الممنوع. رأى خضرة مموجة كبحر لم يرَ مثله في حياته، وفاكهة ناضجة، وحِسَانًا، وخيولًا، وأرانب. ظل يلعب

ويضحك في القصر الجديد لاعنًا هؤلاء العجائز الذين حرموه لوقت طويل تلك المتعة غير المتوقعة. ولأنه وجد نفسه في قصر لم يخطر ببال إنسي من قبل فقد جرب كل يوم متعة جديدة حتى رأى بابًا مكتوبًا عليه: «ممنوع الدخول من هذا الباب». ولأن نفسه، المنسوجة من الفضول والمغامرة، أخبرته أن ما وراء الباب لا بد أن يكون جنة أجمل مما يعيشه الآن فإنه لم يعط لنفسه وقتًا؛ ليأخذ قرارًا بفتح ذلك الباب، فتحه.. حين مر منه وجد نفسه بجوار تلك الشجرة العجوز مرة أخرى. كأنه لم يقض بالداخل عبر كل هذا السنوات التي غيَّرت شكله، وأشعلت شعره بالبياض، سوى لحظة.. انفرط يبكي بحرقة، ويأس مرة أخرى حتى عثر على العجائز، فدخل معهم فردًا جديدًا في دائرة البكاء اليائس الذى لن ينته..

كان الأستاذ يحكى بأسى. كأنه يعرف «إبراهيم» هذا. بينما كان «أكرم» الطفل يحلم بعد سماع تلك الحكاية بأن يملك كل الحكايات؛ ليجلس في مكانه في اليوم الثاني، ويظل يحكي لزملائه، ولكل المدرسة حكايات عجيبة لا نهاية لمعانيها المتجددة، ولعل تلك القصة هي ما جعلته يقرأ، ويكتب القصص والروايات بعد ذلك بحماس لا يمكن وأده.

مع انتهاء الشاي سمع طرقًا متواليًا خفيضًا على باب الشقة. لم يكن هناك عين زجاجية في الثلث الأعلى من الباب لينظر

للطارق من خلالها. من الداخل ضغط على مفتاح الكهرباء الذى يضيء السلم، ولف أكرة الباب، ونحّى الترباس إلى الخلف ليفتح الباب. رآها، حينئذ، تندفع باتجاهه، واليد ذات الأصابع الطويلة الخشنة والأظافر المدببة المطلية بلون بني قاتم تسحب روحه إلى أعلى. وجدها قبالته. تحدق فيه بحدة صقر رغم عيونها المسحوبة داخل جفنين سميكين مجعدين. كانت شعرات بيضاء تسيل على وجهها المستطيل الضخم الأبيض، قلبه خفق بقوة. كأنه ينزلق إلى أسفل. ابتلع كمًا هائلًا من هواء السلم الراكد. للحظات تجمد بصره عليها، فقال بآلية:

- أية خدمة؟

لم يكن يدرك كيف يظل الخوف رابضًا في صدر الإنسان كل هذه السنوات، ثم عاد يلملم نفسه في الداخل، فأخبرها أن اللقاء الأول لا بد أن يكون هكذا، سيتغلب على خوفه بعد ذلك. كانت «فلك النور» قد سألته عن مكان «محمد عثمان». أحس أنها تراوغه مثلما يراوغها بتمالك أعصابه، ثم هبطت السلالم بتأنٍ وهي تعطيه في المسافة السابقة لاختفائها نظرة ليست أخيرة على ما يظن. أغلق الباب، وجلس متوثبًا على كنبة الصالة. اللاب توب أمامه. فتحه ليتمعن في صورة ابنته «إلهام»، فيعيد لنفسه انضباطها بعد تفكك خواطره.

صنع كوبًا آخر من الشاى لينام. «الناس تشرب شايًا لتسهر»

وأنا أشرب شايًا قبل النوم؛ كي أستطيع الرقاد مستريحًا». قال لنفسه ذلك وهو يبتسم مستعيدًا بعض رباطة جأشه. في المطبخ سمع حركة. لعله صرصار يتخفى. كان يراقب الماء الساخن وهو يتبلَّر في كريات صغيرة، فيصعد إلى الأعلى؛ ليهبط مكانه ماء جديد يسخن هو الآخر. وهكذا تيارات الحمل. السخونة تصعد إلى أعلى. ويهبط الماء البارد؛ ليأخذ دوره. والهواء كذلك. «لهذا ترطب جسدنا بعض النسمات الطيبة في القيظ. ودائمًا ما تشبه الأمل الذى يلوح وسط حالات الألم؛ لتدفعنا مرة أخرى إلى مواصلة حياة هى في غالب تصرفاتها عبثية. لماذا ينصب الناس لبعضهم فخَاخًا رغم أن الجميع «الصائد والفريسة» سيرقدان جنبًا إلى جنب في النهاية؟! إنه صراع البقاء ولو للحظات إضافية. لولاه لاستنامت الدنيا إلى سكون الموت بكل معنى الكلمة. إن اللعبة فيما يبدو هي صراع الطبيعة نفسها نحو التشبث بالحياة عبر صراعات يقوم بها أبنائها، قال له «أحمد رحمي» وهما يتجادلان على المقهى بينما يناقشان قصصهما الجديدة: انتبه! خرقت قانونًا ثابتًا. ما الثابت وما المتغير؟

«فُلك النور» ما زالت ترعبني حتى الآن. رغم أني عدت للقرية بأفكار راسخة جديدة. سوف أسعى؛ لغرسها هنا، وفي أي مكان جديد أذهب إليه ولو ليوم واحد، متخلصًا من ألم الإهانة والاستخفاف الذي لحق بي في كل مكان ذهبت إليه، ولن أفعل

إلا قناعاتي ففي النهاية سيكون الصدام مهما طالت المراوغات، لكنني فشلت في اللقاء الأول، فكيف أواجه الآخرين؟». كان يفكر والماء يغلي.

هى امرأة تصاحب الجن وتُسَخْره، بل إنها واحدة منهم، هكذا كانوا يتناقلون حكاياتها في الطفولة كما يتناقلون أعجوبة راسخة من قديم الزمان. هي موجودة وسطهم وقبلهم وستوجد بعدهم إلى الأبد، لكن كيف كان يصدق مثل هذا الكلام، ويعيده على لسانه الآن؟ ألا يتنافى مع مبادئه، وقناعاته الجديدة؟ ضحك باستخفاف.

عاد إلى كنبة الصالة التي لم يجرب غيرها حتى الآن. وضع كوب الشاي أمامه. البخار الأبيض الدافئ يتماوج راسمًا بعض الوجوه والملامح الحزينة. كأنما يشاركه ولعه. ما إن يرى البنت، ويتشرب روحها الشقية الجميلة من خلال ملامحها حتى تأتي لحظة مباغتة يتذكر فيها أمها التي انقلبت فجأة، فصار بالنسبة لها عدوًا قبل الطلاق بأشهر قليلة. صارت كلمات الحب طيف ذكرى لا يمكن الاتكاء عليها؛ لأن الحب فيما يبدو لم يكن موجودًا أبدًا.. متى أحس به آخر مرة.

سمع حفيفًا أشبه بورقة يجرها الهواء على البلاط تحت قدميه، لما خلع حذاءه وجوربه أنعشته برودة السيراميك، ولم يهدأ الصوت.. كان النور قد تحوّل من وهجه الأبيض الهادئ إلى

الأزرق الكئيب، ثم الأسود، فانبثقت منه وجوه عديدة تضحك، وتتشاجر، وتثرثر دون أن يمسك بلفظ واحد، أو تعبير وجه ثابت، بعدها رأى صفوفًا من الصراصير كأنها انفرطت من عقد، وفئران تصاصئ هاربة، وأخرى مذبوحة، دم.. ارتجف.. دم على الحوائط، وعلى الأعمدة التي كان يراها من وراء بعض بقع الحوائط الشفافة.. في الشوارع، وفوق وجوه كل الكائنات التي تلهث هاربة من وحش ما، صور الحائط كلها موشومة بالأحمر الفج، كان أحدهم يدق الباب بإلحاح، ومن عجب أنه قام بسرعة ليفتحه، فقابله شاب كان يجلس بجواره اليوم في القطار، أشعلا سجائر وتحدثا، قال له الشاب الآخر: تعال نلعب لعبة الذبح.. أفصل رقبتك عن جسدك، ثم أضعها مرة أخرى في مكانها، فتعود إلى الحياة من جديد. يشاهد ،أكرم، برامج خداع السحرة في القنوات الفضائية، لكنه لم يشاهد فيها هذا الذبح العلني الذي يمكن فيه إعادة الرأس إلى مكانها لتلتئم، ويجف الدم، وتعود الحياة.. تقريبًا كانت اللعبة القاتلة متبعة في أجواء القطار. لم يثق بوعد الشاب، قام مسرعًا من مكانه تاركًا حقيبتاه، وهبط من القطار الذي توقف فجأة، وجاء هنا ليتخفى، فرأى ،فُلك النور، في المطبخ تشحذ سكينها ذات المقبض الأصفر، تدندن ببعض الطلاسم الغريبة، لم يكن غريبًا أن يدرك أنها الطلاسم نفسها التي تصنع بها أحجبة للعانس، والعاقر، والمرأة المغدورة

من زوجها، ومن تفكرن في الانتقام.. انسحب لأرضٍ عميقةٍ، بئر مظلمة على ما يظن، ولمس الطين، فغاصت قدماه ثم رأسه. رأى في المشهد الأخير فئرانًا معلقةً على مدخل البئر. اختنق.. ارتجف جسده فجأة، فقام مفزوعًا. عيناه مفتوحتان على اتساعهما، والضوء الرمادي انسحب قليلًا؛ ليحل محله وهج أصفر قوي. أغلق عينيه وهو يخور كثور منطرح أرضًا تحت أقدام جزار.

فوجئ بصوت طرقة قوية، وصأصأة فأر، وسمع لغوًا بالخارج، فتخيل أنه لا يزال يعيش أجواء الكابوس. كانت الأصوات في الخارج تأتي متقطعة. صراخ عميق. واحد ينادي على آخر. جري ولهاث.. في شقته كان ينام على صوت «سارينة» الإسعاف، ويصحو أيضًا على صوتها. هدوء يعقبه حركة. الأطفال الساهرون حتى الآن بلا منزل. أو أهل يصرخون ويطلقون أصواتًا كالنساء الثواكل، ثم يجرون. يقذفون بعض البيوت بالحجارة. لا الشرطة استطاعت أن تحميهم من نزق سكان العشوائيات الذين يطوقونهم هناك، ولا نضجهم قدر أن يتجاهل استغاثاتهم المصطنعة. كأنما يسخرون من بعض الأمان الذى يحظى به بين جدران منازلهم أهل المساكن الفقيرة. فتح عينيه ببطء هذه المرة؛ ليستوعب ما يحدث. كان نصف كوب الشاي على الطاولة أمامه. اللاب توب شاشته قائمة، لكنه مغلق. لم يكن قد فتحه أصلًا، وكانت حركة ملهوفة تجري على بعد خطوات في المطبخ. ضغط على مفتاح

الكهرباء في المطبخ ودخل. رأى فأرًا متوسط الحجم يقفز من المطبقية حتى حوض غسل المواعين، ويمسك بأطراف الشباك، ثم ينزلق منه إلى الخارج. تجمد في مكانه. يشاركه بالشقة فئران. لمح ذيلًا يتحرك في سرعة، لكنه لا يغادر مكانه. اقترب حذرًا. أمسك خشبة صغيرة، حرك القفص الحديدي المستطيل ناحيته. فأر في المصيدة. مقدمة أسنانه بلون وردي. اقترب منه. نظر في عيونه السوداء اللامعة المدورة، لا تنغلق. جسده لحيم كريه المنظر. يظن أن هناك فأرًا آخر تحت خشب المطبخ محاصرًا مثله بالضبط. أحدهما يتربص بالآخر.

لا يمكن أن ينام في وضع كهذا. رأسه يدور بلا توقف. والحفيف ينقطع، ثم يعاود في إلحاح. كأن أحدهم يعفر مكانه ليتخفى. ذيل الفأر علامته المفضوحة. رآه طويلًا مدببًا، ثم اختفى وراء الثلاجة. عاد إلى الصالة. أشعل جميع اللمبات. أمسك رأسه بين ذراعيه، ثم انسحب إلى الصالون. يُربّع ساقيه تحت فخذيه على الكرسي، ويشاهد سيل الصور المتلاحقة في التليفزيون دون صوت. في نفس اللحظة ينظر باتجاه الصالة. لعل فأرًا يأتي؛ ليتخفى هنا، أو ليسمم جسده بعضة مباغتة وهو نائم.

-٩-

قال «محمد عثمان» حين عاد من صلاة الفجر: «اليوم، سيصلح لك النجار الشبابيك».

كان يمسك بالمصيدة من أعلى، وهو يملأ برميلًا صغيرًا بالماء، ثم يدلي المصيدة في الماء لعدة دقائق موجهًا بصره خلف ظهره حيث يقف «أكرم» قائلًا كأنما يعلمه شيئًا لزمن آت: «هذه أفضل طريقة لقتل الفئران هنا. كنت أحرقهم بالبنزين، لكني توقفت، فحرام أن نتشبه بالله جلا جلاله في عذاب الكافرين».

كاد «أكرم» يقول له ساخرًا: علمونا صغارًا أن الغرق، والحرق من أدوات الله في التعذيب، لكن البشر أحرقوا بعضهم بعضًا في حروب لا تنتهي، كما أن الله نفسه يهددهم بعذاب جبار لا يتحمله جبل فأية حياة هذه التي يضربها الخوف والتناقض من كل مكان؟! لكنه امتنع عن الكلام حتى لا تشتعل مواجهة كلامية ليس لديه الآن طاقة لها.

رفع «محمد عثمان» المصيدة. شاهدا الفأر مُكومًا في ركن المصيدة. فتح بابها، ألقى الفأر النافق في الشارع، ثم أغلق الباب قائلًا: «هناك مصيبة حدثت الليلة في الكُور يا أستاذ أكرم. خذ حذرك. شباب ضائع تشاجروا في حفل زفاف تخلف عنها أربعة

جرحى في الطوارئ. يقولون إن واحدًا منهم على الأقل قد مات».

لم يعد متاحًا أمامه أن ينام ساعة أخرى بعد السادسة صباحًا. أطلق النور من مناقير العصافير شقشقة الصباح، وتخلل خصص الشبابيك، وأغرقه. كان زجاج الشبابيك الداخلي شفافًا وهذا أمر مزعج؛ فلن يستطيع النوم طوال النهار إلا حين يلصق عليه ورقًا ملونًا. الستائر، أيضًا، بها أعواد زرقاء من أوراق النباتات على خلفية من لون فاتح شفاف. وضع رأسه بين ساقيه مرة أخرى. طاحت رأسه بعد دقائق مرة، واثنتين، فعزم أن يأخذ نفسه بالحذر؛ كى لا ينام، ويفوته موعد المدرسة الرسمي. حَضَّر جواب النقل، وملفًا من بلاستيك أزرق يحوي صورًا طبق الأصل من ملف التعيين. أعد لنفسه إفطارًا من الخبز الأبيض الذى اشتراه أمس من السوبر ماركت، وبعض قطع الجبن الضاني، والمربى، والبيض المخفوق. ارتدى القميص البني الفاتح، والبنطال الأسود. ولمع وجه حذاءه الأسود بخرقة خشنة كانت في حقيبته.

كان الشارع هادئًا. ينظر إليك القادم في الاتجاه المعاكس نظرة تفحص صفيقة. عربات الكارو تتقابل في اتجاهات متعاكسة. صليل أجراسها عصبي. البنات يمشين في خطوات غير متسقة من منتصف الشارع حتى جانبيه. الزي المدرسي للصفوف الإعدادية كما هو «دريل» أزرق تحته قميص أو «بلوزة» بيضاء.

بعض ضحكات مفاجئة تنطلق من أفواههن. الأرق يبدو في عيونهن جميعًا في أهلة سوداء أسفل العيون، والعيون صريحة. لا تنكسر على وجوه الطلبة والطالبات. في المرحلة الابتدائية ،مريلة بيج، تحتها بنطال أسود أو قميص، وبنطال بنفس اللونين. كانوا صغارًا، ومدرسة ،مصطفى كامل، التي يمد الخطى في الاتجاه إليها الآن عبارة عن مبنيين. كل مبنى كان عبارة عن دورين لا أكثر. مطلية بالجير الأبيض. والفصول سقوفها بيضاء وطلاؤها أصفر مقشر. يكاد يهبط من السقف، وأعلى الحوائط. أما الأرضيات فكانت دائمة الرطوبة ولم يكن الطلاء يستمر عليها. يشعر التلميذ ببرودة، وخشونة في ظهره حين يغيب مدرس حصة، فيتم ضم فصلين من نفس المرحلة، فلا يجدون مكانًا. يجلس بعض التلاميذ لصق الحائط رافعين أرجلهم مسندين عليها الكتاب أو الكراسة.

كان يسأل نفسه طوال الطريق: هل يجد الأستاذ ،سعيد عبد الغفار، هناك؟ وكيف يكون اللقاء؟

حين جاء أبوه منذ زمن ليخبرهم أنهم سيرحلون من هنا كانت الدموع تطفر من عيني ،أكرم، الصغير. سيودع أصحابه إلى الأبد. هذا وإن تظاهر أمامهم أنهم سيسكنون في شقة عالية في المدينة الكبيرة، وأنهم سيذهبون إلى المصايف، والملاهي، وحديقة الحيوان، وسيتكلم بلهجة مختلفة. ذهب وحده للأستاذ ،سعيد

عبد الغفار». كان يتجول على سطح بيته. ابنته «دنيا» الصغيرة تقف، وتخطو بضع خطوات، ثم تقع، وهو يجلس أمام أصص الورد البلدي، والريحان، وذيل التمساح، والجهنمية. يقصف الأوراق الصفراء بمقص صغير، يرش الأوراق الخضراء بالماء من بخاخة صغيرة. قطف له وردة بيضاء وقال: «هذا فل. رائحته جميلة». قطف له وردة قرمزية أيضًا: «هذه وردة الجارونيا». وضعهما «أكرم» في يده. كان سيطلب منه إصيصًا؛ ليضعه هناك في البلكونة في شقتهم الجديدة، لكنه تراجع، فالسفر طويل وقد تموت الوردة مع الانتقال. وضع في يده كمثرى، وعنقودًا من العنب البناتي الأخضر المصفر. قال له: «سمعت أنك ذهبت مع أصحابك إلى مقام عبد الله المبارك، نذرت له شموعًا إن أنت نجحت». أخفى «أكرم» خجله، وهو يحاول أن يرفع عيناه في وجهه المنشرح بابتسامة متسامحة. قال كاذبًا: «ذهبت مع باقي أصحابي الصبيان، والبنات.. نذرنا جميعًا النذور، لكنني بعدما نجحت لم أوف النذر». قال الأستاذ: «حسنًا تصرفت، لا أحد يستطيع أن يقدم لك خدمة. أنت من تصنع نجاحك باجتهادك». قال: «فهمت»، لم يكن قد فهم أو اقتنع بما يقوله أستاذه إلا بعد سنوات كثيرة.

كان «أكرم» منزعجًا من كلامه الخطر على عقله الصغير. خائف من أن يعرف بما قالته روح الشيخ «عبد الله المبارك» التي

تطوف في القرية؛ لتأتي بالغذاء للجوعى، وبالمال للمحرومين كما قيل لهم. لولا روحه المباركة تلك لاحترقت القرية كلها بروح «فلك النور» التي تغادر جسدها في المساء؛ لتطوف بالبيوت، تراقب كل ما يحدث فيها، تنتقم لأتباعها ممن يسيئون إليهم، تصب الكوابيس على رؤوس من يفكرون مجرد تفكير في الاستهانة بها. قال متشجعًا بالمسافة التي كان الأستاذ يحاول أن يمحوها بينهما، إذ إنه قد لا يراه ثانية، بأن تلك الأشياء لها قوة، فضحك مرة أخرى بصوت أعلى غارسًا سبابته اليمنى على جانب جبهة «أكرم» الطفل قائلًا: «هنا منتهى القوة». زوجته «أبلة فاطمة» جاءت بالشاي، وقطع البسكويت. سألته عن أمه، وعن مدينتهم الجديدة: هل لكم أهل هناك؟ أعاد عليها «أكرم» ما قاله لأصحابه: ليبعد عن نفسه شبح الخوف من المجهول. رحلوا يومها في المساء.

مدخل المدرسة بوابة حديدية واطئة. عليها ألوان علم مصر بين عمودين عاليين ينتهيان بضلعي مثلث. على اليمين رقعة مستطيلة بها أشجار، وزهور غير منسقة منذ اللحظة الأولى. على اليسار ملعب المدرسة، وأرض الطابور. لعل طبقة الرمل المخلوط ببعض الحصى وضعت؛ لتحميه من الأمطار. أضيف لكل مبنى دور آخر. كانوا فترتين دراسيتين. حجرة المدير ترى حتى البوابة؛ لذلك كان الرجل يسلط عينيه في «أكرم» منذ

دخل. لا يعرفه. لم يكن مدرسًا بالتأكيد أثناء دراسته. يعرف «أكرم» كل مدرسيه رجالًا، ونساءً. حتى الإداريين، والعمال. يحب أكثرهم باستثناء العم «ربيع»، ذلك الأسود الجهم الذى ناولته يداه السمراء المشققة صفعات متوالية على قفاه؛ لأقل هفوة أثناء الدخول، والخروج، أو تجاوز الطلبة، أو دفعهم للأمام أثناء الدخول من البوابة التي كانت أعلى مما هي عليه الآن. تشكي لمدرسيه، فـ «طبطبوا» عليه، وذهبوا إلى الرجل يطلبون منه ألا يضرب أميز طالب في المدرسة. رد الرجل عليهم بنفس الجلافة وهو متصلب في مكانه. علم «أكرم» فيما بعد، وفي السنة النهائية له هنا في المدرسة، و«الكُور» أن الرجل كان يعاني من عدة أمراض، وأن عصبيته يتحملها الجميع كنوع من التآزر معه، فسعى حينها أن يتحاشاه؛ حتى لا يراه.

وقف المدير وراء مكتبه الخشبي الكبير:

- أهلًا، وسهلًا.. نورت المدرسة، والكُور كلها.

بقوة سلم عليه وكفه بموازاة كفه الأبيض الكبير البارد. أشار بيده الأخرى. جلس «أكرم» على كرسي خيزران على يساره.

- أنا أعرف الظروف. عذرًا.

- حضرتك لم تكن سببًا فيها لتعتذر.

وُلد ظل من الاستياء على وجهه. كان تعبير «أكرم» جافًا.

- أقصد أن من آذوني يهنأون الآن في مكان آخر.

- يا سيدي الفاضل، الوسط الوظيفي كله يحتاج للنسف.

صراحته مفتاح لمعرفته. يظنه واحدًا من اثنين: رئيس عمل يتفهم مطالب مرؤوسيه، ويحققها لهم بشكل فيه الكثير من الود، أو رئيس عمل كثير العرق؛ لمرض، أو لضخامة جسده. يعتقد أن الصفة الأخيرة هي ما ينطبق عليه؛ فوجهه الأبيض ناضح بالدم، والعرق الغزيز يمسحه كل دقيقة بمنديل قماشي.. فتح الرجل دفترًا أخرجه من درج مكتبه بعد أن طلب له شايًا، وأعطاه جدول الحصص. نظر له «أكرم» كالمستغيث:

- لكن يا أستاذ عماد تخصصي غير هذا. أنا مدرس لغة عربية.

- أستاذي العزيز! المدرسة بها عجز في مواد أخرى، ونحن كتبنا مذكرات بذلك، والإدارة جاءت بك من آخر الدنيا لنا، ورغم ذلك ينقصنا مدرسان آخران: لسد العجز.

- إنني منقول: لظروف طارئة، وهذه مدرستي وأنا طفل.

- البلد حدثت فيها مجزرة ليلة أمس. معظم الأطفال خاف أولياء أمورهم من تطور الأحداث خصوصًا أن بيت أحد القتلى وراء سور المدرسة.

- لكن الجدول ...

- حضرتك مُدَرس ابتدائي. ماذا كان تخصصك في الثانوية العامة قبل الدخول إلى كلية تربية قسم لغة عربية؟

- علمي.

مد راحتيه مبتسمًا. كأنه حقق انتصارًا سريعًا.

- أرأيت؟ علمي.. كلها أشهر يا أستاذ، ونتمنى أن تقضي بيننا وقتًا طيبًا.

لا يريد أن يفوت حقه في البداية هكذا كما اعتاد؛ حتى لا تتعقد الأمور بعد ذلك. فأعلن بحسم:

- أنا طلبت فعلًا المجئ إلى هنا، وليس معنى ذلك أن أقوم بشرح مادة لم أتعرض لها قبل ذلك.

وكيل المدرسة دخل الحجرة وبيده جدول الإشراف، وعصا خشبية طويلة سميكة يطارد بها الصغار في الطُرقة. صوته كان يلاحقهم منذ فترة في الحجرة. اعتقد «أكرم» أنه رآه، فجاء بعد دقائق الاستقبال الأولى في حجرة الناظر.

- أهلا أستاذ. أنا أعرفك.

يعرفه فعلًا. كان مدرس الأنشطة في الصفوف الأولى. في المرة الثانية للسلام بعدما عرفه بنفسه اندفع؛ ليأخذه في حضنه. كان ضغط اللحظة عاطفيًا؛ لذلك قرر أن يحسم موضوع الجدول الآن، وإلا فلن يستطيع أن يطالب بحقه بعد ذلك، سينفر منه الجميع رغم أنه يطالب بحق، قبل أن يوجه وجهته نحو الناظر قال للوكيل:

- الأستاذ سعيد عبد الغفار موجود؟

عين الوكيل الجاحظة انكسرت على بلاط الغرفة. أسدى

لحيته النابتة وهو يرفع له وجهًا شاحبًا حزينًا. كاد «أكرم» يقول: «من فضلك لا تقل لي أنه جُن». كان يُستفز أحيانًا. ويتشاجر مع المدرسين الآخرين. علاقته بمعظم المدرسات محدودة. كن بحدس ما يتقن إلى الكلام معه، وسؤاله عن معظم ما يعن لهن. هادئًا في أغلب الأحيان ينتظر أن يوقفه طالب، أو طالبة أثناء الفسحة؛ ليسأله سؤالًا، فيأخذ بيده إلى أقرب مقعد موضوع في «الحوش»، يفسر له ما غمض من الدرس. يأتي إليه بعض الطلبة من هنا، وهناك. «لا تقل لي إنه رحل من هنا»، فلم يجئ خصيصًا إلا ليقابله، لكن الناظر هو من أسعفه بالإجابة قبل أن يفتح الوكيل فمه:

- الأستاذ سعيد الله يرحمه. نموذج. كان فاشلًا في دراسته الثانوية، فحول إلى دبلوم الصنايع. وأخذ شهادته بعد محايلة.. ولما تعين هنا اجتهد؛ وكان لا يمانع في شرح أية مادة للطلبة، بل يوافق بسعادة. مادة الرياضيات مثلًا التي يهرب منها غالبية الأساتذة هنا، لكن الله يجازيهم. للأسف أنهى حياته كما ابتدأ عند نقطة الصفر.

اقشعر جلده من المفاجأة المؤلمة. زادتها حدّة ذم الناظر له في صورة مموهة تشي بالمدح، لكنها لم تخل عليه. في لمحة أخرى من الناظر وقف بعد أن أنهى ارتشاف الشاي المضبوط الذى أحضره له عامل شاب، وأخذ بيده في اتجاه الفصول.

- نحن ضممنا الفصول هنا؛ لغياب معظم التلاميذ كما قلت لك إثر الحادث. افتح كتاب الرياضيات واقرأ مسألة. وقد تستطيع شرحها بسهولة. ولا تمش في موعد الانصراف قبل المرور على مكتبي.

أحس «أكرم» بغرابة مطلبه الأخير؛ فمن المفترض أن يذهب؛ ليوقع في دفتر الحضور والانصراف توقيع الانصراف كما هو معتاد في مدرسته. حين فكر فيما حدث بالحجرة من كتابته اسمه، ثم التوقيع له في نفس اليوم بالحضور علم أنه حريص على الدفتر حرصًا يجعله لا يأمن أن يعطيه لأحدهم ولو لمجرد التوقيع لأنفسهم. تذكر حكايات كثيرة عن أفعال انتقامية من مدرسين، كتمزيق الدفتر حين يكون أحدهم غاضبًا، أو حرقه. أو سرقته. لكن هذا نادر الحدوث. حين غادر الناظر حجرته أغلق بابها بقفل أسود كبير جذبه ناحيته بقوة؛ ليتأكد أنه مغلق. حين سيعود سيفتحه؛ ليستقبل كل متطلبات، ومشاكل المدرسة.

الإدارة عند «أكرم» كانت قد نبهت على الناظر أن يرقم دفتر الحضور والانصراف، وكذلك نبه عليهم الموجهون أن يرقموا دفتر التحضير.. «كأنك ملزم بعُهدة. لديهم حق في بعض الأشياء، لكن لما ترى تصرفاتهم المشبوهة تخال أنهم ينفذون أوامر يكرهونها، ويتمنون أن يهدموا النظام تمامًا؛ ليغوصوا في الفوضى التي يحبونها. بدليل تعنتهم مع كل مدرس مشهور بجودة الشرح،

والنظام لدرجة أنني حينما سُئلت مرة في تحقيق عن أسوأ ما في العملية التعليمية قلت: الموجهون، ومديرو الإدارات. يأتي الموجه؛ ليضع تقريره كل فصل دراسي، فيبحث عن طالب مكوم في الأدراج الأخيرة. شعره منكوش، وملابسه غير مهندمة. يقول له: كراستك، وكتابك؟ إذا أخرج هذا الطالب كراسة، أو كتابًا فسيكون بالكراسة درس واحد فقط، أو عدة دروس قليلة بعد انقضاء معظم الفصل الدراسي، والكتاب مهمل. يقول الموجه: أين الاهتمام يا أستاذ؟ مديرو الإدارات يأتون في زيارات فجائية. يقتحمون الفصول كضباط المباحث دون أي احترام لكينونة المُعلم، أو للعلاقة بين أفراد الهيئة العليا للتدريس أمام الطلبة حتى، ثم يدورون مع أعوانهم في الطرقات بين صفوف «الدكك» الخشبية القديمة التي تحطم معظمها. ويبحثون لك عن أية ثغرة؛ ليحرجوك. أقول: «لو أن المدرس ذا الضمير الأخلاقي يرد عليهم بالمثل فسوف يهتم بالشكليات فقط؛ ليخدعهم دون أن ينهك نفسه في بناء طالب مميز رغم فقر الوسائل، وفوضى الجداول».

كان «أكرم» يستعيد أفكاره وهو يمشي مع الناظر حتى دخل الفصل وجد أمامه عشرة طلبة تقريبًا من الصف السادس الابتدائي. تعرَّف بهم. شرح لهم حصة لغة عربية. طلب كتاب

الرياضيات من أحدهم؛ ليقرأ فيه حينما يعود إلى شقته المستأجرة؛ ليجئ في النهار الثاني، كما خطط، ويعلن للناظر أنه لا يستطيع شرح هذا المنهج للطلاب، سيحاول الناظر بكافة الطرق الضغط عليه. سيصر على مطلبه. لن يفعل إلا ما يبرع فيه ويريده.

لما هبط من الدور الثالث كان الناظر ينتظره أمام مكتبه. كرسي آخر من الخيزران كان فارغًا بجواره. لم يكن بالمدرسة حينذاك إلا عاملان، وبعض الطلبة الذين يتدافعون للخروج من البوابة. جلس منتظرًا أن يحادثه بشأن الجدول. أحس بمراقبته الخفية لعينيه هنا، وهناك. قال:

الإسعاف سيأتي بجثامين القتيلين بعد دقائق من الآن، المدرسون سيقونا إلى الجنازة.. البلد كلها تضع يدها على قلبها في هذه الظروف العصيبة.

- الظروف عصيبة هنا في البلدة وفي مصر كلها.

- عليك نور.. هذا ما أردت أن أنبه ذكاءك إليه.

تردد كثيرًا، أو اصطنع الخجل وهو يكمل:

- أمس رآك أكثر من واحد مع «مدحت البيَّاض»، و«إبرهيم فتحي». تجلس معهم ساعات، ثم أوصلوك إلى محل سكنك. لم أكن أعرفك. قالوا: المدرس الجديد، وأحب أن تنتبه لذلك..

«إبراهيم» سافر من قبل إلى «أفغانستان». وحين عاد حكموا عليه بالسجن خمسة عشر عامًا. رفاقه أخذوا تأبيدة وبعضهم مات في السجن، وقد عاد منذ فترة، وهو يعمل أشياء غريبة. تهجم مرة على رواد المقهى أثناء الآذان ليقوموا للصلاة. يدرب بعض الشباب في أحد الأجران المهجورة على الكاراتيه. وهل هو مضبوط؟! لا. يبحث عن رائحة النساء أينما وُجدوا. و«مدحت البيَّاض» من أعضاء تنظيم الإخوان البارزين في «الكُور». كثيرون يعرفون ذلك، ويعرفون أنه همزة وصل مع السلفيين الجهاديين. لا أحب أن يتم إيذاؤك من أحد بأكثر مما أوذيت.

قال «أكرم» متمالكًا أعصابه بعدما صفعته مفاجأة التدخل الوقحة في شؤونه:

- فعلًا لا ينقصني ظلم، ولكن هل أخبرك بذلك أحد المدرسين هنا؟

- أنت مثل ابني، وهذه الأسئلة إجاباتها لن تقدم الكثير. فقط انتبه. الأمن لا يفرق بين مجرم وبريء في الظروف العصيبة.

هل ينبهه الرجل، أم يختبره؟ «مدحت» كان زميله في المدرسة الابتدائية هنا، وزملاؤه أتوا وهو هناك. «برهومة» قابلهم في الطريق. هل كان ذلك تخطيط مسبق؟ كاد يضحك في سره، ويقول: الناظر يعطي الأمور أكبر من حجمها. ولا بد أن أوقفه

عند حده. لكنه أحجم عن ذلك الآن لظروف أمس العصيبة: وما رآه خلال الثورة حتى الآن، من عبث، وجنون، يخبره بأن قرارًا واحدًا خاطئًا قد يودي بحياة الإنسان بغتة، وأحيانًا يكون الوقوف، مجرد الوقوف في مكان مناسب للقناص، أو في مسار الرصاصة التي خرجت بعشوائية، تودي بحياة هذا الشخص، فقال وهو يكظم غيظه:

- أريد أن أزور قبر الأستاذ سعيد عبد الغفار.

في طريق المقابر مئات من الشباب، والرجال، والشيوخ واقفين، أو جالسين.. متزاحمين على المصاطب، وجذوع الأشجار في هذا الشارع الكبير المؤدي إلى كوبري المقابر. أتربة تتصاعد وتواجهه. طريق المقابر واسع. مرصوف كشوارع القرية وان كان بشكل أفضل، فلا أحد يحفر هنا بعشوائية؛ لإيصال المياه، أو لوضع مواسير الصرف الصحي حتى الناحية الأخرى. وليس هناك شركات ستقوم بتوصيل خطوط التليفونات، أو المياه العذبة من هذا الطريق؛ فالمقابر مقامة في غرب القرية، ومجاورة لعدة عزب بعد الحقول. لا تأتيهم من خلالها لا كهرباء ولا ماء منذ زمن بعيد. يظن أن الوضع هكذا حتى الآن. كل المصالح تدخل القرية من مدخلها الرئيسي في الشرق أو الشمال.

للمقابر أسوار مطلية باللون الأخضر، ومزينة بلمبات كروية بيضاء على مسافات متساوية. شوارعها نظيفة مكنوسة وبعضها مرصوف. أما سقفها فكان مظللاً بشبكة من أعمدة حديدية قائمة على أعمدة أعرض، وأشد صلابة. مزروعة بالتوازي في الشوارع. فوقها غاب، وقش؛ حتى لا تأكل الحرارة مشمع السقف، واللمبات البيضاء الحلزونية تتدلى منها. مر «أكرم» برفقة الناظر بشوارع

ضيقة حتى وصلا إلى مقبرة وحيدة واطئة في آخرها. طوبها البارز أهلكته الرطوبة، وقبابها دانية. على «حززها» الأسمنتية طحالب خضراء، وبعض النباتات الصغيرة الهشة التي تطوحها أقل نسمة هواء. بجوارها صبارة برّية هائلة غير مشذبة. نظر للناظر الذي فيما يبدو قد فهم مقصده، فقال:

- لم يكن الأستاذ سعيد من أبناء القرية. تزوج، واشترى مقبرة هنا قديمة، ولم يسع إلى بناء أخرى جديدة. وهو لا يعرف أن الموت يأتي بغتة. الله يرحمه.

أمسك «أكرم» العَبَرات في عينيه؛ حتى لا يشعر الناظر بأي شيء. بينما سمعه يتلو سورة «الفاتحة»، و«الصمد». يُتَمتم ببعض الأدعية وهو ينظر إليه؛ لينصرفا، لكن «أكرم» طلب منه أن يدعه هنا بعض الوقت، فانصرف الناظر بعد إلحاح، وقد نبهه أن يأخذ حذره؛ فاليوم ليس يومًا عاديًا في حياة «الكُور». المقابر، رغم تزيين مدخلها بنباتات العليق، والجهنمية، يسكنها بعض المنحرفين من تجار البانجو، والحشيش، البلطجية.

تبعه بعينيه حتى اختفى في الشوارع الأوسع قليلًا. وقعت عيناه بجوار رأس معلمه. كانت ورود بيضاء، وبنفسجية صغيرة هشة تخرج بجوار المقبرة بشكل مائل. كأن جذورها، وأعناقها تتغذى مما هو موجود في الداخل، وبقدر ما أبهره استنباطه لمغزى المشهد المائل لعينيه بقدر ما حدثته نفسه عن خطأ لَي عنق

الأشياء للوصول إلى نتائج نستريح إليها، وهي ليست الحقيقة، فعدل عن هذا، ثم سأل أستاذه بينه وبين نفسه وكان يود لو تحدث معجزة ويوشوش له أستاذه الراحل بإجابة: «ماذا رأيت هناك عندما دخلت من الباب الثاني؟ وماذا كان مصدر حزنك الدائم؟ ألأنك، كما عرفت، تعثرت في دراستك الأولى، ثم ضاعت حياتك في اللا شيء؟ كنت أفضل من شرح لنا كل المواد الصعبة، وأفضل من جعل المدرسة بالنسبة لي على الأقل هي الحياة بغموضها ووضوحها. وهي مناط بحثي، وهدفي. كان أبي وأمي يحفزانني دائمًا على الطموح، وكنت أخدعهما برغبتي في دخول الطب، أو الصيدلة. وفي دخيلتي طمحت إلى أن أكون مثلك مدرسًا، يملك الحكايات كلها، ويؤثر في عقول وقلوب تلاميذه».

لم يتمالك نفسه آنئذ، انفلتت عبراته تباعًا على خده، زُلزلت حواسه بدقات قلبه، تصاعدت الحرارة في كل أعضائه. مسح دموعه بأصابعه، فهطلت أخرى. يمسحها، فتسقط بجوار الصبارة غير المشذبة. وضع كشكول التحضير جانبًا، أمسك قطعة من الصاج الصدئة وجدها بجواره. أخذ يشذب الصبارة. كانت هناك أكثر من عين تراقبه. نظر في اتجاههم، فتطلعوا لما يفعله بيده، وغادروا. بعضهم أطلق عليه السلام. والبعض أشاح بيده. شذب الصبارة، ومهد التربة بجوارها، ثم صنع حولها مجرى للمياه. كانت أطرافها صفراء متهدلة. يدرك أن الرطوبة

هنا رطوبة مالحة قد تقتل النبات. مشى حتى وصل إلى قناة الماء الصغيرة بجوار الزروع. ملأ زجاجة مياه بلاستيكية كانت ملقاة على الأرض، وعاد ليروي الصبارة التي تتقوت على أقل نقاط للماء ويروي الزروع الأخرى، شاهد زهورًا صغيرة تحملها أعناق هشة وقد نبتت بين قباب المقبرة. مشى بجانبه وهو يلقي نظرة أخيرة على قبر الأستاذ، فقابله الناظر مرة أخرى وهو يمد له يده قائلًا بحزن طاغ: «البقاء لله». مشى بحذر. سمع صوت سرينة الإسعاف، والناس يهرولون أمامها، وحولها، ووراءها. كانت المقبرة تضج بالبشر. وقفا قليلًا، ثم انطلق مع الناظر حتى مفترق الطرق. جذب الرجل يده: لتناول الغذاء في بيته، لكنه اعتذر منه بحجة أنه على موعد غداء مع الحاج «محمد عثمان»، وأنه، صادقًا، لم ينم منذ ليلة أمس سوى ساعة واحدة ويريد أن ينام.

على مدخل الشارع وجدها. مرة أخرى ترمقه بحدة. كأنها تغوص داخله. نظرات الناس هنا في الغالب هكذا. يتفحصك أحدهم كأنك مُدان، وحين تبادله النظرة بالنظرة لا تنكسر عيونه، أو تنحرف عن مسارك، بل تظل معلقة بجلدك من الداخل: من أنت؟ ماذا تعمل؟ ماذا في جيبك؟ أين تعيش؟ وما شكل شقتك من الداخل؟ ما أحلامك ؟ وما إنجازاتك؟

ساعات يخفف أحدهم من تلك الحدة اللا مبالية بإلقاء السلام، فيرد «أكرم»..

«فُلك النور» تقف بجلباب مبرقش بورود صغيرة، و«قمطة» وردية بها زهور سوداء على الرأس. بينهما مسافة لا تزيد عن مترين. مكتحلة. تبدو كذئبة. تستند على عمود. تتابعه كرادار يتربص بسيارة مخالفة للسرعة. كهوف نظرتها تكاد تبتلعه. مد الخطى، باتجاهها ألقى سلامًا خفيضًا. لا يعرف كيف خرج منه. بالشارع مارة يروحون ويجيئون وراكبو دراجات بخارية، وحمير. لم تتشتت عيونها عنه. المُستهدف لها؛ لذلك لم يدخل من البوابة في الشارع الجانبي، ويصعد إلى شقته؛ كي لا تتبعه كالأمس. ضغط على جرس الباب الرئيسي لمنزل الحاج «محمد عثمان».

كان اسمها «فوزية». قالت أمه منذ زمن. لما كبر صرحت له بما كانوا يتناقلونه هم الصغار على المصاطب. والجسور من أنها من بنات الجن التي أحبت رجلًا هنا. واختارت أن تُمسخ إنسية. وهي تعمل أعمالًا، فتفرق بها بين الرجل وامرأته؛ حتى يعودا إليها راكعين لإرادتها، تعمل أحجبة، تتحكم في مصائر الكل كما يقال. قالت أمه: «قتلت زوجها لما أراد أن يراها على حقيقتها. هناك أعوان كثيرون لها. ليس هؤلاء فقط من تراهم بجانبها في الشوارع، بل أناس في وظائف، وأماكن محترمة، وربات بيوت لا يراهم أحد. جميعهم يأتمرون بأمرها. ودون أن يشعر بهم أحد. شبكة عنكبوتية منظمة شديدة الدقة». كانوا قد رحلوا بعيدًا

عن «الكُور»، لكنهم لم يرحلوا عن تأثير سطوتها، فبالمساكن التي عاشوا فيها كانت هناك امرأة أخرى لها سطوة ساحرة على الناس. كم حاول إثناء أبيه وأمه عن الذهاب لها. كانوا يسمعون له باهتمام، ثم يذهبون إليها من ورائه كلما دهمتهم ضائقة أو مصيبة، وكانت أخواته البنات يقلن له ذلك بنوع من التحدي. أصدقاؤه كم كافح بينهم ليثبت لهم أن كل ذلك لا يضر ولا ينفع، حتى حينما يواجهونه بأي القرآن والأحاديث، كان يرد عليهم بأن عقل الواحد منهم هو ما يحب أن يرى الحياة هكذا، ولو أن له إرادة صلبة وعقل حصيف لما استسلم لإرادة الخوف. حتى لما اشتعل الحماس في الميادين ظل يعيد على أسماع أقرب الناس إليه أنه لن تنجح إلا بالقضاء على الأفكار المنحرفة لا السياسات المنحرفة فقط.

اقتنع أن سحر المرأة الذى كان يخافه قديمًا لن يطاله الآن لأنه وهم، لكن لم يخاف منها حد الرعب؟! لم؟!

قابله على الباب وجه الفتاة الأسمر. مسح على شعرها الخشن. رمقه الحاج «محمد عثمان» من شق الباب الموارب، فقال بحميمية: «أنت صاحب بيت يا أستاذ. اتفضل».

دفع الباب قليلًا، وجلس في حجرة الضيوف. جاءه صوت «محمد عثمان» واعدًا بالعودة خلال دقائق؛ لأنه سينجز شيئًا..

- ما اسمك؟

- بطة.

- بطة؟ البطة تُقاقِئ على السطح .

ضحكت، فبانت لثتها الخالية من الأسنان اللبنية.

- أنا فاطمة.

- نعم. ماذا تحفظين يا «فاطمة» من أغاني المدرسة؟

ترددت بعض الوقت. راحت تنظر إلى شبشها البلاستيكي الأزرق، ثم صَعَدَت له وجهًا ناضحًا بالدهشة.. وبدأت بهدوء، ثم علا صوتها: «عمو خميس يا عمو خميس.. عندك كام كتكوت في الكيس؟.. عندى عشرة ون تو ثرى.. فور فايف سيكس.. سيفن إيت ناين.. تن تن تن».

- وماذا، أيضًا، يا فطومة؟

اتسع فمها وهي تبادل حفاوته ببسمة إعجاب.

- أنت ستعطينا حصصًا يا أستاذ؟

- ممكن.

- أنت تضرب يا أستاذ؟

قال ضاحكًا: ضرب حتى الموت.

جفلت البنت، واهتز كتفاها. وضع يداه على أعلى جناحيها؛ لتسكن ارتعاشاتهما.

- إلا فطومة. هي الوحيدة التي لن ينالها عقاب حين تسمع الكلام.

- أنا أسمع الكلام. بابا وماما يحبونني لأنني أسمع الكلام. ممدوح لا يسمع الكلام.

أشرقت صورة «إلهام» أمامه ولهجتها، فكادت عبراته أن تسقط في هذا اليوم الصعب. كان «ممدوح» أصغر منها بعامين. في السنة الأولى للحضانة. لعله لم يذهب اليوم، أيضًا، لظروف جريمة القتل التي حدثت ليلة أمس، ودُفن ضحاياها منذ نصف ساعة.

قال «أكرم» مغيرًا من مجرى الحديث؛ وليطمس خوفه قليلًا:

- المرأة .. فُلك النور في الشارع، أما زالت تعيش؟

رد «محمد عثمان»:

- امرأة شر. حدثت كوارث في القرية بسببها، لكن لا أحد يستطيع ردها.

كان يتكلم بصوت خفيض وقد أغلق الباب الخارجي، ولعله اقتطع بعض الجُمل التي كان سيقولها كما أحس «أكرم» بذلك، وقالت امرأته التي تضيق عينيها؛ لتضفي بُعدًا من الدهشة على كلامها:

- أتينا إلى القرية، فرأيناها تعيش في نفس حجرتها الآن. ومنذ ثلاثين عامًا وهي على حالها. رغم كل ما يمنحه لها الناس الذين يلجأون لها. عُمْرِنا ما ذهبنا إليها.

«زغر» لها زوجها بعينه، فـ «كشّت»، واندفعت إلى الداخل، قال «محمد عثمان»:

- تعال لأنقل معك أشياءك في الشقة. أنت من ضمن أهل البيت. لست ساكنًا. تذكر هذا.

يريد أن ينام ولو ساعة واحدة، لكنه متأكد أنها لن تكون ساعة. سيضع رأسه على «المخدة»، فيغوص في قاع المحيط الأسود الساكن حتى منتصف الليلة التالية. لكن الكوابيس.. الكوابيس ستوقظه في منتصف النوم. سيعاود النوم.. الفئران. كان يحمل الكرتونتين فوق بعضهما. و«محمد عثمان» يحمل كيس الأرز وراءه. وضع السمن، والجبن، والقشدة في الثلاجة. الطبخ وضعه في خزن المطبخ. وأغلقها بالمفتاح. أخرج «محمد عثمان» التليفون.

- نعم. تعال الآن. وضحك وهو يقول: سلام.

أبلغ «أكرم» فرحًا أن نجارًا سيأتي الآن: ليصلح شبابيك الشقة.

- أنت محظوظ. الصنايعي يحب العمل. لا أحد سيعمل اليوم. الكل سيراقب ما سيحدث لأن إحدى العائلتين التي راح لها قتيل ثرية، وكبيرة جدًا، مشهورة بالقوة، والافتراء، ومستعدة لقتل كل أفراد العائلة الأخرى. كان حفلًا للزفاف. الشباب هنا يفعلون ما لا يقدر الواحد على ردعه. حتى أهلهم سلبيون. لو شاهدت «زفة» لخلتها عركة. موتوسيكلات كثيرة تطلق أبواقها الزاعقة. كل موتوسيكل يركب عليه اثنان. واحد يقود وواحد يصنع ببخاخة «إسبراي» نار يُرَقّصُها في الهواء. سلوك الكهرباء المعزولة قريبة. قد تشتعل بطبقتها البلاستيكية النار. تكاتك. صف من التكاتك.

ترقص يمينًا ويسارًا. في كل منها ثلاثة، أو اثنان. وأحيانًا شاب وفتاة. وترى ما يسوءك دون أن تتحدث؛ فصفوف المشاة بالسيوف، والسّنج، والمطاوي تصلصل أسلحتهم اللامعة. والناس الكبار مثلنا يشاهدون كل ذلك من بلكونة. لا يقدر الواحد على هذا الصوت الهيستيري، والدم النافر في العروق، والعصبية التي لا تلين.

قال «أكرم» مُعقبًا:

- إن تهيئة أجواء القتل هي نصف الجريمة. الفعل في حالات كهذه يكون تلقائيًا.

رد «محمد عثمان»:

- ربنا وحده هو الستار. الحكومة لا تتدخل إلا بعد وقوع المصيبة. الناس كثرت بشكل لا يتصوره أحد.

كان «أكرم» يعتقد أن منطقة المساكن الشعبية التي تخصهم في الجيزة هي التي تحفل بأصناف شتى من الفوضى، وكل ما شابهها من جيوب المدن الخارجية. أما الأرياف فلا تزال تقبع في السكينة، لكن هيهات.

جاء «حسين». عرفه «أكرم» من النظرة الأولى. رأسه تضخمت، وأصبح سماره أقل حِدة. عيونه واسعة. خضارها قاتم، طفل في السابعة تقريبًا يرافقه، يحمل جرابًا قماشيًا، و«حسين» يعلق قلمًا خلف أذنه، و«شاكوشًا» مقبضه الخشبي الطويل خلف حزام بنطاله الأسود المتسخ. في الناحية الأخرى متر معدني. للحظات ظل يرنو إلى وجه «أكرم». ابتسما في وقت واحد..

خلع «حسين» الشبابيك. حف بعض القطع الخشبية الصغيرة التي أحضرها معه، ثم سمُرها في المناطق المتآكلة بفعل الفئران، وكان يخلط بعض نشارة الخشب بالغراء الأبيض: ليملأ بها الشروخ والأماكن الفارغة في العوارض الخشبية. كان «محمد عثمان» قد أحضر أربعة أمتار من السلك الصلب المطلي اللامع القوي. فحصه «حسين»، وقال مُعلقًا: «أفضل نوع». قال «أكرم» مغيرًا مجرى الحديث:

- لم أنم منذ يومين يا صاحبي، فماذا لو أنهيت شباك حجرة النوم أولًا؟

قال «حسين» بفرح: «من عيني».

كان فصل «١/٥» يمتلأ عن آخره بخمسة وأربعين طالبًا.

كانوا معًا منذ «١/١» حتى النهاية. ظل «حسين» يعدد له أشغال بقية الزملاء الآن.. «آدم» صار طبيبًا، و«جمعة» وكيلًا للنيابة في محكمة المنصورة الابتدائية، و«حسين» الآخر في الكلية الحربية، و«سعاد» صيدلانية، والباقون إما مسافر للخارج، أو يعمل في بعض القرى السياحية، والوظائف، والحرف المختلفة.

- لم لا تذهب إلى «جمعة»، فيرفع الظلم الواقع عليك؟

رد «أكرم»: «فكرة»، في داخله رغبة في البعد عن هذا الأمر. كان أبيًا ففكر كيف يطلب من صديق قديم أن يتوسط له؛ لإلغاء النقل التعسفي؟ ثم إنه اختار أن يأتي إلى هنا بدافع داخلي قوي لا يستطيع كبحه. ولا أحد يعلم أين يكمن الخير. كل الأشياء التي حدثت له من قبل وكان مستاءً محبطًا من حدوثها كانت في صالحه بعد ذلك. كان على وشك السفر إلى «الكويت» في عقد عمل، بكت أمه، وتبلبل أبوه دون أن يمنحه بديلًا، فجأة جاءه جواب التعيين إثر تقديمه تظلم للمحافظ من تعيين زملاء في الدفعة بينما لم يحظ هو بالتعيين؛ لأن الفروق بينه وبينهم هي أجزاء من عشرة في درجة التقدير. عام كامل ظل يدور حول نفسه، يشتعل رأسه بالإحباط حتى جاء جواب التعيين. العجب كله حين ذهب إلى المدرسة، وجد عجزًا تسده الإدارة بتشغيل بعضهم بنظام الحصص، أو التعاقد بعد ذلك. يكره الدروس الخصوصية. يعتقد أن المدرس يفقد مهابته أمام الطالب، لكن الراتب لن

يكفيه إذا ما تزوج.. رفض عدة دروس خصوصية؛ ليتفرغ للقراءة والكتابة. راسل الجرائد، والمجلات، فنشرت له بعض القصص، وقدم في المسابقات الأدبية، ففاز ببعض الجوائز في مراكز متأخرة. المهم أنه بعد محايلات انتظر والداه كما وعدهما أن يصير روائيًا كبيرًا. يأتيه المال من كل حدب وصوب، يبلل قلوبهم العطشى؛ للظفر بالمكاسب بكلمة المال. بل يذكر أمامهم مقدار الجوائز الكبرى، فيسكتون عنه بعض الوقت مدركًا أن ما يعيش ويبقى لا علاقة له بأية جائزة، بل بعمق وحساسية رؤيته، لكنه أجهض أساليب تشويههم لما يبدع؛ كي ينقذ نفسه من معارك جانبية ستُهلك طاقته في بداية مشواره.

استمرت المعارك. خطيبته كانت تأخذ الأمر بجدية في البداية، ثم لما تزوجا ووجدته يضني جزءًا كبيرًا من راتبه، ومن المبلغ الذى خصصه له أبوه كل شهر مقتطعًا من معاشه الصغير، على الكتب، والورق عايرته قائلة: «بدلًا من أن تساعد أباك وأمك تأخذ منهم! زملاؤك سيبنون عمارات من الدروس الخصوصية وأنت مثل المشلول أمامي طوال النهار في الشقة. أنا اختنق».

امرأة لا يمكن أن تقف في ظهرك أبدًا إلا حين ترى عائدًا مغريًا جدًا. لا تصلح كامرأة لحكيم، أو عالم، أو شاعر. يقول بعض الزملاء الذين ارتبط بمقابلتهم في ندوات أدبية صغيرة مثلما يقول. أكثرهم يعانون من مثل ذلك. من لم يتزوجوا يشكون

من محاربة الأهل لمواهبهم. الشعار الدائم على لسان الجميع كالقدر: «نحن نعيش في مصر، لا في فرنسا أو أميركا». يقول «أكرم» لهم: إن «ماركيز» رهن كل شيء في شقته؛ ليتفرغ لكتابة «مئة عام من العزلة»، فيقولون: حتى في مثل هذه المجتمعات تبدو الأمور أيسر؛ فالحرية الشخصية تساعد كثيرًا على إنجاز ما تود إنجازه رغم الاضطراب السياسي. كما أن ارتباطك بامرأة هناك نابع من الحب. أما نحن فنتزوج؛ لنحل مشاكلنا الجنسية.

هل بعد كل هذا العذاب تأتي المكافأة من حيث لا يدرس؟ لما فكر في قناعاته السابقة من قبل وجدها تقع في تلك المرحلة الرمادية التي لم يحسم فيها أمر اليقين بعد. إنه لساعات كان يفبرك النتائج لصالح الإيمان نتيجة وقوعه حينها أسير لعاطفة ما، انتهت الآن خلف رؤية جديدة يرى من خلالها هذا الطريق الطويل للحياة وكأنه السراب. لا أمل من وراء الوصول مبكرًا لما تريد، ولا هدف للجلوس في مكانك، فأنت مدفوع وراء أمل تعرف في النهاية أنه سراب، وأن شمس حياتك سوف تهوي ذات يوم دون أن تشرق من جديد.

لماذا يكتب إذن؟! لما فكر في هذه المفارقة ضحك من نفسه، فالمفترض أنه بعد هذا الاكتشاف العجيب يمزق حياته بين الملذات، أو يعتصم بمكانه دون أن يأبه لأي شيء، لا أن يكتب، أو يدخل في جدال طويل مع الأصدقاء، والزملاء، وعامة الناس حول

الفوضى التي نعيشها ونحاول فقط أن نكسبها المعنى بإلصاقها بأهداف كبرى، وكائنات ما ورائية، الحقيقة أنه لم يكتشف تلك المنطقة من نفسه التي تُحوّله إلى كائن شغوف بالمعرفة والقراءة والكتابة بعد، لكنها باتت السبيل الوحيد أمامه الآن على الأقل؛ لتحمل العيش ليوم جديد.

أغلق «حسين» باب حجرة النوم من الخارج. بدل «أكرم» ملابس الخروج بـ «ترنج» أبيض صيفي، تمدد على الفراش الذى كان باردًا. انتعش في البداية، ثم رأى نفسه يغوص شيئًا فشيئًا في قاع محيط كالح، خرج له ناظر المدرسة متجهم الوجه، وقال له: ستنفذ ما آمرك به. أخبره «أكرم» أنه مسافر إلى مدينته: ليرى ابنته وأبويه ويعود غدًا، فرد الناظر ببسمة فاترة تحمل معنى اللا مبالاة ومعنى التهديد معًا: سأوقع لك في دفتر الحضور والانصرف حين تتعاون معنا. قال «أكرم» لنفسه: إن التعاون يعني إلغاء كياني، لكن هاجسًا طرأ على ذهنه فجأة، فقال: ماذا لو خدعته؛ حتى يحقق لي ما أريد؟ حمل حقيبتيه، واشترى عروسًا وقطارًا، للذهاب إلى ابنته، يراها مرة كل أسبوع وهو هناك، منذ انتقل هنا اتفقوا على مرة وحيدة في الشهر حتى يعود، هبط إلى موقف عربات الأجرة في المنصورة وكانت غريبة. شحبت أضواؤها، وتكسر الإسفلت على طرقها، وانخفضت عماراتها إلى طابقين، أو ثلاثة كـ«الكُور»، بالضبط، ثم هطل المطر من السماء. لم يستطع

التقدم خطوة واحدة، أخبره بعض الناس الذين تتبدل وجوههم كل لحظة أن عليه أن يعود: فسيأتي فيضان يهدم البيوت. جرى مع من جروا، دخل شقته، وأيقظه أبوه: للذهاب إلى المدرسة، وغام الجو، ثم انقطعت الرؤية. وفي المدرسة تسلم إنذارًا بالفصل من العمل.

- آسف يا أستاذ. أنت تغيبت خمسة عشر يومًا بدون عذر. ولم تأتِ للقائي في المكان الذي حددته لك.

- أنت حددت لي مكان اللقاء في الحلم والله؛ فكيف تريدني أن أصدق ذلك، وأنفذه؟

- رأيتك أيضًا في الحلم وانتظرتك حين صحوت، لكنك لا تؤمن بالله إيمانًا كافيًا؛ ليجعلك تصدق هذه الرسائل. ستذهب إلى «الكومسيون» الطبي، وتأتيني بعذر مرضي، وبعدها لا يشرفني أن نتعامل معًا؛ فأنا أحب المؤمنين الذين يطيعون الله في الحلم واليقظة.

أمسك «أكرم» رأسه بين كفيه المفرودين، وكاد يبكي، لكنه لم يحب أن يصفه المدرسون بالضعف. هؤلاء الذين أتوا؛ ليواسوا المدير في بلواه. أخذ بنصيحته، وقرر أن يذهب إلى الكومسيون الطبي؛ لعمل إجازة مرضية، لما عاد وجد قِئرانًا مذبوحة على باب الشقة، وصراخًا هائلًا يأتي من ورائه، والمرأة «فُلك النور» تجلس على الكنبة عنده، وتضحك. تراجع حتى اندك رأسه في الحائط.

استيقظ فزعًا. شهق. رنا إلى السقف الذي تنعكس عليه بعض الأضواء الشاحبة من خصص الشباك، وتلقت أذناه أصوات مطرقة «حسين» المتوالية. كان كابوسًا داخل آخر كأنه في علبة مطموسة في محيط. أغمض عينيه مرة أخرى.

كان قريبًا من البحر هذه المرة. لم يعد يخاف منه. وهو طفل كان يخاف من الماء لدرجة أنه يصاب بالفزع إذا ما تخيله وهو قاعد في البيت، فكيف بالذهاب ناحيته؟ حتى الترع، والقناني التي كانوا يصطادون منها الأسماك. كان يختار أكثرها ضحالة بالمياه. كيف يمكن الاطمئنان ونصف الجسد، أو ثلاثة أرباعه يغوص في عالم مجهول مع كائنات حية مجهولة؟ لم يكن يذهب إلى المصايف وهو طفل. البحر الكبير داخله كائنات عدة: هلامية، ومتوحشة، وكان الناس يروحون ويجيئون، وأصدقاؤه يهولون ما أحسوا به: نتيجة لدغات قناديل البحر، ويكشفون عن سيقان بها آثار جروح قديمة. لم يكن كل كلامهم صدقًا، يلمس تلك المبالغات في كل كلمة يقولونها مدعين خوض مغامرة ما، هو نفسه أخذ حكايات غيره وحكاها لآخرين على أنها مغامراته هو في صغره، ولعل حاكيها قد استلبها من آخرين غيره، وفي النهاية يجد الحكاية الحقيقية تخلو من إرادة البطولة أو المعجزة.

البحر أمامه الآن كان أخضر فاتحًا كلونه في الشواطئ النظيفة، الناس فرادى وأزواج تحت المظلات يأكلون ويضحكون،

الأطفال يقتربون من الماء، فيضج قلبه بالفزع. رغم أنه كبير بدرجة يستطيع فيها اتخاذ قراره، وقد تعلم السباحة، لكنه لا يأمن لهذا الجمال الذى انبثق أمامه بغتة، ظهرت «فُلك النور» فجأة تحت مظلة وهي تلتهم «مكرونة إسباجتي» بملعقة كبيرة، نظرت إليه، فتسمر في مكانه، لما كان الناس حوله فقد اقتحمته أصواتهم، لكن البحر كان بلا صوت.. كيف يكون البحر بلا صوت؟

وضع إصبعه؛ لينظف أذنه. إنه يسمع صخب الأطفال، والنساء، والرجال. أما الأمواج فلا هدير لها. البحر أمامه. لا نهائي. تنهل ضفته الأخرى من السماء الرمادية الكابية في ذلك الوقت. التفتَ. حين غادرته عيون المرأة لثوانٍ جرى في اتجاه البيوت، البحر يجري من ورائه كأنما يلحق به، وهو يغطي الأشياء كلها، حتى وجد نفسه يخوض غماره، وهاله لونه الأسود وهو يتطوح صارخًا موشكًا على النهاية، فانتشلته يد كبيرة من حتفه. لا يظن أنها يد المرأة. فتح عينيه، فصدمه نور الحجرة المضاء. كان «حسين» هو من انتشله هذه المرة.

- أكيد كابوس.. صوتك عال جدًا. قُم توضأ. واستغفر الله، وتعال قف معي نتفرج. البلد ستحترق هذا اليوم.

كان الصخب في الخارج يتخلله صوت آذان العشاء في مكبرات الصوت التي تتداخل في فضاء القرية. صعدوا إلى السطح، صعد «محمد عثمان» بعد ذلك مخبرًا إياهم أنه تم قذف طلقة خرطوش في المسجد. الناس قطعت الصلاة وهربت سوى نفر قليل أغلقوا الباب عليهم، وانغمسوا في التضرع إلى الله أن يرفع الكرب عن البلدة وأهلها. رأوا بنادق آلية تضرب الرصاص في الجو، وجوقة الأصوات المرتاعة تتردد في كل البيوت، في الشارع كان بعضهم يجرى هنا وهناك، أو يشاهد ما يحدث. هناك قتلى سيسقطون اليوم أيضًا. تخفوا وراء سور السطح؛ حتى لا يراهم أحد. بعد دقائق سمعوا إطلاق رصاص متوال ثم صراخًا، واشتعل حريق في محل «دوكو» سيارات. قال «حسين»: إن اليوم غريب، ولن تمر بلدنا بأي سلام بعد ذلك. وضج «محمد عثمان» بالغضب: أين الحكومة من كل تلك البلطجة؟

كانوا يشعرون أن الفوضى قد فرشت رداءها المبرقش بالسواد على الكل في هذه السنوات الأخيرة. في سنوات الدراسة الجامعية انتظر «أكرم» ثورة على كل المستويات: السياسية، والاجتماعية، والدينية.. أدرك أن السلطة السياسية هى المسؤولة عن تدني كل

شيء، وانفجرت الثورة في يناير، رغم أنه كان يحلم بها منذ زمن بعيد إلا أنه خاف من الموت قتلًا، بل اتخذ من حرص أسرته على حياته حجة؛ كي يظل بعيدًا عن الأماكن المشتعلة. شيئًا فشيئًا خجل أمام نفسه، أمام قتلى ومصابين من الشباب أمثاله، فأصبح جزءًا من الشارع في الأسبوع الأخير قبل التنحي، وبعد الإطاحة بـ «مبارك». مرت الأيام في التخبط، كانت ضريبة الوعي الغائب فورية.

سمعوا فرقعات هائلة لزجاجات النفط، وجوالين «التنر»، والدهانات شديدة الاشتعال، اختفى صوت الرصاص في مواجهة صوت الفرقعات الضخمة، صعدت النار كوحش أسطوري جائع برؤوس متعددة إلى الدور الثاني فالثالث، ثم شبّت في محلات مجاورة. كان قليل منهم يندفع في اتجاهها بجوالين الماء، فيرشها، فتعود سيول الماء بالنار، فالمواد البترولية المشتعلة لا يمكن إطفاؤها بالماء. أمنوا على كلام بعضهم البعض دون أن يغادروا أماكنهم الآمنة، أتت سيارة المطافي. كانت شرارات النار تصعد في السماء. ما إن رآها «محمد عثمان» حتى هبط بسرعة وأتى بجالون ماء. تبعه ساكنون آخرون بـ «جراكن» كبيرة، وطلب من الجميع أن يساعدوه في رش الماء على حجرات وعشش خشبية كانت مقامة بالسطح كمزرعة دواجن وطيور قليلة، حتى لا تشب فيها النار من الشرارات التي تملأ الهواء.

تحتفظ «الكُور» في ذاكرتها بحريق هائل أكل ثلاثة أرباعها، وأكثر من مئتين من أبنائها في منتصف سبعينيات القرن الماضي. لم تكن عائلة «أكرم» هنا. ولا هو كان قد وُلِد أصلًا. حينما جاءوا إلى هنا أخبرتهم حكايات الناس بذلك. تلقى حكايات الكور وكاختزال لحكايات بلد مقهور بكامله، باستثناء فورات على فترات متباعدة. ينمو والحكايات تنمو معه؛ لكنها لا تشيخ. يسمع من أمه حكاية، ومن أبيه تفسيرًا آخر للحكاية. هما خرجا أيضًا من «الكُور» بكل هذه الحكايات. ورغم أنهما طافا بكثير من القرى والعِزب إلا أن خمسة عشر عامًا في «الكور» أدخلتهم في أبنائها الأصلاء قبل أن يستقروا أخيرًا في شقق الإسكان المتشابهة الفقيرة. بحوزة أبيه كتاب عن تاريخ «الكُور» ألّفه واحد من أبنائها. كان صحافيًا في بداية القرن العشرين، وقد اعتمد، حسب ما يخبرنا في الكتاب الذى أتى به معه في الحقيبة، على أصل «الكور» كقبيلة يمنية أتت قديمًا في ترحالها التجاري، ثم دخول باقي أفرادها بعد الفتح الإسلامي، حتى قيل إنها أعرق وأقدم من «المنصورة»، التي بناها «الملك الكامل»، عاصمة المحافظة بستة قرون على الأقل. كان الكتاب الذى قرأ جزءًا منه لا يزال مستقرًا في حقيبته بانتظار إنهاء مطالعته؛ حتى يجمع مادة لرواية جديدة استلهمها من مدخل «الكُور» مضفورة بطفولته المستعادة. الكتاب يقول: إن «الكُور» كانت واقعة بين بحرين من

المياه العذبة، ومجموعة أحراش هائلة. تواريها في الغالب عن قبضة السلطة الحاكمة؛ لذلك ضمت في غالب أوقاتها كثيرًا من المطاريد والمتمردين. ولم يشأ الكاتب فيما يظن أن يفجع أهله بتلك الحقائق، وبأن ما فعلوه من قبل هو نتاج ذلك العِرق المتمرد الذى يرفض قبضة السلطة في أي وقت، فكيف حدث التحول الغريب في تلك الأيام، وسقطوا جميعًا منذ كان هنا وحتى الآن في قبضة «فُلْك النور»؟ كيف خنعوا لكل الظروف القاهرة، ورضخوا لوعود لا تُنفَّذ من الحكومة؟

سأل «محمد عثمان» من قبل عن سوء الخدمات هنا، وعن مصرف صارت تصب فيه مواسير المجاري مياهها ليل نهار، فأخبره أنهم تلقوا وعودًا كثيرة من أعضاء مجلس الشعب في الدائرة تفيد بردم ذلك المصرف في المسافة الواقعة عند مدخل «الكور» حتى انتهاء بيوتها. ولم يُنفذ ذلك، وعن أعضاء المجالس النيابية السابقة الذين كان منهم أكثر من واحد من «الكُور» نفسها لم يحقق أمنياتها.. فهل صار الآن ابنًا مُخلصًا «للكور»، وتاريخها أكثر من أبنائها الذين لم يغادروها منذ طفولتهم حتى شيخوختهم من بوابة الموت؟

ألسنة النار كانت تصعد كثعابين هائلة على الأسطح، وتنفرش في اتجاهات عدة. يقال إن هذا الحريق الكبير كان بسبب امرأة تخبز بعض الأرغفة في فرن بلدي، كانت الأفران ساعتها تبنى

في باحة البيت تحت عريشة منصوبة على أربعة أعمدة خشبية في الهواء، وكانت رياح الخماسين تدمدم. لم تلحظ المرأة إلا سيل النار خارجًا من الفرن إلى ما جوارها، فصرخت وجرت باتجاه مدخل البيت؛ لتعود بأبنائها، فيطفئوا النار التي شَبَت في العريشة، ثم دخلت برج الحمام وأمسكت بأجنحته، فطار بها على الأسطح الجائعة للارتواء، وأَجّت النار في البيوت الطينية، والأسطح الخشبية المتلاحمة.

كانت النار هائلة في وعيدها، تمنى ألا يرى ما حُكي له من قبل. معظم الشباب الواقفين على بُعد قليل من النار الآن يرفعون كاميرات تليفوناتهم المحمولة؛ ليصوروا بعض ما يرونه. وانقطع النور فجأة عن البلدة؛ لأن النار طالت أسلاك الكهرباء، ارتج قلبه من المشهد ولم يستطع السيطرة على جموح مشاعره، ورغبته في القفز من فوق السطوح، لكن جسده لم يتحرك من مكانه، أمواج النار تغرق البيوت، وهجها سلب منه إرادته، وثبته هنا إلى الأبد.. سلطت المطافئ خراطيمها بالسائل الرغوي، ثم بدأت النار تستحيل إلى دخان أسود كثيف، ولم يخفت صوت الفرقعات بعد. هدؤوا قليلًا. كأن بعض الاطمئنان الذى حل بها سيفلت منها.

حادثه الناظر بعد ساعة في التليفون قائلًا إنه تلقى أمرًا شفهيًا من المركز بإغلاق المدارس في «الكُور» غدًا لثلاثة أيام

متوالية حتى يجد جديد، وأن مدير الإدارة قد أكد له الأمر أيضًا. فتح الجيب السحري في حقيبته الكبيرة، أخرج الورق «السوليفان» الغامق، والمقص، واللاصق الشفاف، ثم ألصقه على الشبابيك من الداخل؛ حتى إذا جاء الصباح لا يقلقه النور، ويشده من النوم. كانت الليلة ثقيلة. لن تمر هي الأخرى بسلام، أصوات صاخبة، وصراخ في الخارج. لن تنام «الكُور» اليوم ولا غدًا. ولا أحد يستطيع أن يؤكد متى تنام هادئة مطمئنة، وأتى النور بعد ساعتين.

فتح اللاب توب، صورة طفلته «إلهام» على الواجهة. روح بابا بعيونها العسلية الواسعة، شعرها البني القصير، بشرتها البيضاء البريئة، وسنواتها الأربع تبزغ في براءة نظرتها، يحس أنها قريبة منه حين يحدق في ابتسامتها الحلوة في صورتها الفوتوغرافية الكبيرة، ثم أغلقه وصعد إلى الذكريات.

انطفأ النور مرة أخرى، سمع مَنْ يصرخ في الخارج بأن أسلاك الكهرباء مُزقت بفعل فاعل. في حجرة الجلوس كشاف شحن متوسط، معلق على مسمار بجوار السرير، اتجه ناحيته ليضيأه. أوقفته أربع خبطات رتيبة عالية على الباب من الخارج. هي نفسها خبطات «فُلْك النور» التي سمعها أمس، وفي نفس الموعد. سقط قلبه في حوض من مكعبات الثلج، وتوقف الزغب الذى يغطي ساقيه وذراعيه. حلقت رأسه في السقف وتشبثت به. أمسك أنفاسه؛ كي لا تخونه وتخرج عالية مضطربة. لن يتحرك في أي اتجاه قبل أن يستعد. بعد دقيقتين كان قد حلم فيهما أن ينته الطرق وصاحبته إلى الأبد.

تكرر الطرق مرة ثانية بصورة أسرع، مرة ثالثة بعصبية والحاح. لعله ساكن من الساكنين الاثنين. أحدهما يعمل سائقًا لجرار زراعي، والآخر موظفًا بالشؤون الاجتماعية، أو «محمد عثمان» نفسه وقد أتى ليطمئنه، طرح تلك الاحتمالات على نفسه، لكن الصوت على الباب كان مميزًا. حين طرق «محمد عثمان» الباب من قبل كان طرقه سريعًا مع صوت مصاحب: افتح يا أستاذ! أنا عمك محمد. حين طرق ابنه الباب كان بنفس

السمت: افتح يا أستاذ! أنا سمير. والساكنان كل واحد منهما لَمَّ أولاده، ودخل إلى شقته. واحد على مسافة ثلاثة أمتار من شقته، والآخر في الدور العلوي، والشقة التي لم تكتمل بعد بها بعض العفش القديم، والكراتين المغلقة. أما السطح فعلى نصفه مزرعة دواجن، والنصف الآخر خال: أي طلوع «محمد عثمان»، أو «سمير» ابنه الأكبر إلى السطح في أي وقت أمر طبيعي. «لو يأتي أحدهم الآن! ماذا لو أغلقت عيني، وتخيلت أنني في مكان آخر أكثر نورًا، وصخبًا ووِدًا؟!». أغلق عينيه، فصفعه الصوت للمرة الرابعة بنفس الإصرار الذى لم ينثنِ. تحرك خطوة في محيط الظلام، فخال أنه اصطدم بجسد لدن، حتى إنه في ارتجافه رفع يده إلى أعلى، وتحسس ملامح وجه. عينان وأنف وجبهة بها خطوط غائرة. أمسكت به أصابع جافة كبيرة. أحس بوخز أظافرها، ولم يتمالك أنفاسه أكثر من ذلك، فأطلق صرخة عالية، وسقط على الأرض. كان يناضل بين أياد وأقدام كثيرة ليقف مرة أخرى. كان أحدهم يفتح عينيه، ودهمته رائحة كريهة ثقيلة، ففتح عينيه بصعوبة. كاد يصرخ مرة أخرى؛ لأن عيونًا كثيرة كان «تبربش» أمام عينيه. وجوه صغيرة وكبيرة. استعاد وعيه شيئًا فشيئًا إلى أن أدرك أن الواقفين حوله هم «محمد عثمان»، وزوجه، و«سمير». تذكر ما حدث.

- هل كنت تطرق الباب منذ وقت يا عم محمد؟

- لا.

خاف أن يكون في حلم لم يستيقظ منه، وأن تكون «فلك النور» لا تزال هنا بالداخل. كان نور الكشاف في أيديهم قويًا في عينيه، فعلقوه على حامل، امتلأت الحجرة بالنور. رأى دوائر من الظل الخفيف على السقف الأبيض المصفر، وبعض الصور المعلقة على حائط. إحداها للنادي «الأهلي». قديمة من الثمانينيات على ما يظن، وصورًا لممثلات لم يستوعب بعد مَنْ هن. هز رأسه مرة أخرى؛ ليتأكد أن ما يعيشه الآن واقع حقيقي، فسمع «محمد عثمان» وهو يبسمل، ويتلو بعض آيات القرآن. أخبره حين قعد في الفراش، وقد أمسك بكوب الليمون الساقع الذي صنعته زوجه له، أنهم سمعوا من المسقط صرخة قوية، ثم هبدة شيء ثقيل على الأرض. لما كان يملك مفتاحًا احتياطيًا لشقته فقد أمر «سمير» أن يتصل به أولًا؛ ليطمئن. لكن «أكرم» لم يرد. حينئذ صعد الثلاثة. كان مصدر خوفهم الآخر أن يكون قد أغلق بابه بالترباس من الداخل. شكر الظروف في سره مرة أخرى؛ فحين كان بالداخل فكر أن يغلق الباب بالترباس كما فعل أمس. انقطاع النور فجأة، والطرق المتوالي على الباب منعاه من ذلك. سألهما إن كانوا قد رأوا أحدًا يهبط على السلالم وهم يصعدون إليه، فردوا جميعًا بالتوالي: لا. مع شعور بالشفقة والاستنكار لا يغادر وجوههم وهم ينظرون لبعضهم البعض.

إذا كان يعاني نتيجة قلة نومه في اليومين الفائتين، فلا يمكن أن تتجسد أمامه أشياء يلمسها وتلمسه، ويحس لأنفاسها صدمة الكهرباء في جسده نتيجة ذلك البرق الخاطف من عيون ابيضت فجأة وهي تحدق به متوعدة، ويسمع طرقات كما سمع بالأمس في نفس الموعد. فتح الباب بالأمس. كان خطأً سببه أنه جديد على المكان، رمق «فُلك النور»، عرفت بوجوده هنا. حدقت فيه بضراوة. أي عداوة تخفيها المرأة له؟! كأن ثأرًا قديمًا لا بد من تسويته بينهما الآن. كان طفلًا حين أشهرت السكين على رقبته لما دخل إلى حجرتها وبعثر أشياءها بحجة البحث عن الكرة ظنًا منه أنها ليست بالداخل، وكان زملاؤه من الأطفال يحكون حكايات شبيهة بما يحكيه. كان سور البيت الكبير الذي تلاصقه حجرتها يكمن وراءه بقايا الحديقة الكبيرة التي تركها صاحبه قديمًا. نخلاتها المهيبة الطالعة في صفين متوازيين، وبعض أشجار التوت، والخوخ، ومنحل كان يشرف عليه فلاح وزوجته مع الجنينة التي لا يملكها أحد. الحقيقة أنه لا النخلات، ولا التوت كانا يشدانه بقدر ما يشده إلى الشقاوة شعور بأنه يشبه أصحابه. حين يخبره أبوه عن بلدته البعيدة التي نشأ بها، وعن إمكانية انتقالهم في أي وقت كان يفرح أمام الأطفال متباهيًا بأنه سينتقل إلى مكان آخر. بينما سكاكين مشحوذة كانت تحز قلبه؛ لأنه لا يستطيع التباهي مثلهم بخالة، أو عمة، أو جد، أو جدة، أو حتى انتماء إلى بلد ما.

قالت أمه منذ زمن: إن «فُلك النور» أتت بعد الحريق الكبير الذى التهم ثلاثة أرباع القرية في منتصف السبعينيات. تحكي أمه على لسان العجائز أن الحريق راح ضحيته ما يجاوز المئتي إنسان، ومال كثير كان مخبئًا في كوىً مُملَّط عليها بالطين، أو في أدراج من الصاج مغلقة بالمفاتيح في باطن «كنبة» من الخشب الأبيض. أتت «لوريات» ضخمة تحمل غذاءً، ومخيمات؛ لإيواء الأهالي حتى تقوم الجرارات، و«اللودرات» بإعادة الشوارع إلى وضعها السابق، وحمل ركام البيوت، وما تبقى من الناس؛ ليبني الناس بيوتًا أخرى بمبلغ التعويض الضئيل.. استعادت الشوارع بعد حين قليلًا من سكانها الذين بقوا في بيوتهم. وجاءت «فُلك النور»: امرأة عجوز وعفية مثلما هي الآن. لم تَشخْ، وتنحن، وتتيبس، ثم تنقرض كالعجائز. ولم تمتنع عن المشي في الحوارى والخرابات.

- لها ابن وحيد. يقال إنه ابن بالتبني. يتاجر في الحشيش والبانجو. أصحابه يترددون على حجرتها. لعلهم يخفون فيها البضاعة. قال «سمير» وكان أبوه قد تركه معه في الشقة قليلًا حتى يأتنس به، ويستعيد طمأنينته: كبست الحكومة عليها في حجرتها، ولم تجد شيئًا سوى أوراق كثيرة. معظمها متسخ، وبه نبش أطفال بالحبر على أوراق المدرسة. يعرف ذلك من زمن طويل. بل إنه حتى الآن لا يعرف سر إدمانها جمع تلك الآثار

المهترئة عن التلاميذ والناس. لها كنبة واحدة في المدخل وستارة. الحجرة كبيرة. لعلها قَسمت منها جزءًا للنوم، وطهو الطعام، وقضاء الحاجة. قال «سمير»، أيضًا، إن ناسًا سعوا إلى قتلها بعدما منعتهم عن زوجاتهم عامًا كاملًا نتيجة تعطيلها قوى ذكورتهم بأعمال الرَّبط، ولم يجدوا لها أثرًا. ظلوا يراقبون حجرتها خارج الباب ساعات. حتى أطل الصبح على انكسارهم، وعودتهم خائبين، وخرجت المرأة من الباب. لما رآها الأهالي الذين كانوا يراقبون المشهد فزعوا، وتشتتوا في كل مكان. يتخفون من كلماتها الهازئة: «ماذا تراقبون يا غجر؟».

سأله «أكرم»:

- هل رأيت بعينيك؟

- الحكايات كثيرة يا أستاذ. يقولون إنها قديمة وخالدة كإبليس، لكن هذا الأمر لا يمكن أن يصدقه أحد، وفي نفس الوقت لا تموت، ولا تمرض منذ جاءت إلى الحارة. تذهب إليها بعض النسوة بأوانٍ ممتلئة بالأرز، واللبن، والطبخ، واللحم، والسمك. يأكلن معها. أخدانها الفاسقات. ترسلهم ليأتوا بنسوة آخرين، فتفك لهم أعمالًا منصوبة في أماكن لا تخطر ببال أحد. لما تعبر بجوار عُرس لا بد أن يلحق بها والدا العروس والعريس؛ ليعطوها ما لا يقل عن أربعمئة جنيه. كان ابنها أكبر منا قليلًا، وأضخم منّا كثيرًا. يسرق من الأطفال «السندوتشات»، والمال، والألوان،

والكراريس. رغم أنه لا يعمل، ولا يتعلم. دخل السجن أكثر من مرة.

- كيف تصدق أصلها غير الإنساني، وقدراتها الخارقة؟

- يا أستاذ، عندي أسرار لا يمكن البوح بها.

- للناس جميعًا أسرار لم يأتمنهم أحد عليها، لكنهم فبركوها.

- سأضطر إلى الصمت؛ لأن في كلامي الآن ما لن يشجعك على الطمأنينة.

في الظهيرة جاء «حسين» مدعيًا أنه نسي شيئًا في الشقة من عدته. لما جلسا طلب منه إغلاق الباب، والتأكد من أنه لا أحد في الخارج. رأى تصرفه فجًا غريبًا عن تصرفاته بالأمس، لكنه رضخ لطلبه، فبالتأكيد يريد أن يأتمنه على سر ما. كان «حسين» عجولًا في التعبير عن حبه، أو كراهيته لشخص ما، فهل ظلت خصاله على برّيتها لم تهذبها مصالحه المتشابكة، واضطراره إلى التعامل بلباقة مع كل أنواع البشر؟ فكر «أكرم».

- سألتني أمس عن الأستاذ سعيد عبد الغفار، بصراحة لولا ما حدث في القرية لقلت لك: هل تسخر مني يا صاحبي؛ لأنني لم أكمل تعليمي؟

- لمَ تقول هذا الكلام يا حسين؟

- لأنك تعرف كل ما حدث للأستاذ، فأنت واحد من أقربائه.

- واحد من أقربائه؟! ألم نكن في فصل واحد يا حسين؟ أتى الأستاذ ونحن في الصف الثالث الابتدائي.

خبط «حسين» على جبهته بشعور المُتفاجِئ.

- آسف يا صاحبي، ولكن الشبه، وطريقة الكلام هما ما خلطا عليَّ الأمر. الحمد لله.

- خيرًا.

- لا. لا شيء، ولكن احذر المرأة فقط.

- مَن؟

- فُلك.. فُلك النور.

كأنه لم يغادره منذ أمس، أو كأنه رازح تحت ظلال حلم وحشي لا يعرف فيه صديقًا من عدو. لو باح له بما عاشه أمس فربما يصدقه، وربما يستغل ذلك ضده، أو يكون مُرسلًا من المرأة نفسها. طرد عن ذهنه كل تلك الهواجس، وقرر أن يدعوه لوليمة أسرار. رأى ظل ارتياح على وجهه، فقد أغلق الورشة في هذا اليوم العصيب؛ لأن الجميع سيضطرون إلى الاعتكاف في بيوتهم من بعد أذان المغرب. حملة الشرطة أخذت عددًا كبيرًا من الناس أمس يشكّون في ضلوعهم في الجريمة. على أبخرة الشاي والسجائر قال لـ«حسين»:

- هل تعتقد أن للمرأة قوة ساحرة لا يستطيع أحد مواجهتها؟

- لست وحدي، كل الناس تهابها وإن قالوا ما تقول به الآن. الوحيد الذى لم يهابها فعلًا كان الأستاذ سعيد عبد الغفار؛ لأنه لم يكن من طينة الكُور، ودفع ثمنًا غاليًا لذلك.

- ما هو؟

- ألا تعرف بذلك الثمن؟ الجميع في القرية يعرف، ولكنى لم أجِئ هنا لأخيفك. أتيت لأحذرك فقط من ألاعيب تلك المرأة الانتقامية، وأطلب منك إن قدرت أن تذهب إليها، وتخبرها أنك لست الأستاذ سعيد عبد الغفار، ولا ابنه؛ حتى تهدأ ثائرتها؛ فالشبه بينك، وبين الأستاذ مريب لدرجة أنه من يراك الآن يذكره فورًا. وأراك اكتسبت طريقته أيضًا في الكلام. حتى نبرة صوته. أتذكَّره. أتذكَّره والله. كأنه واقف أمامي. لم أكن طالبًا مميزًا، لكنني كنت أحبه، ورثيت لحاله.

- إذا لم تكن تلك المرأة تدرك أنني لست سعيد عبد الغفار، ولا ابنه فلا قيمة لمعارفها التي تقدسونها، واذا كانت تخاف من عودته مرة ثانية فهذا إذًا هو المطلوب للقضاء عليها.

-١٤-

كتب على ورقة جانبية: «فُلْك النور». لا يعرف من أين أتت تلك الارتجافة إلى جسده. هو الأمر الوحيد الذى سيقتل به أكثر من عصفور بحجر واحد. قال لنفسه. ستكون هي محور روايته. انبثقت فجأة في وعيه بكل ضراوة ووحشية. روايته السابقة لم تنته، واعتقد أنها لن تنتهي أبدًا؛ لأنه لم يكن ممسكًا بشخصياتها كلها، سيمحوها. كل يوم كان يشق في طريقها عدة أسطر، أو شخصية جديدة.

فتح جهاز اللاب توب.. وفي فورة إحباط محاها، وقعد يفكر. ثم دار في الشقة. وقف عند المنطقة التي رآها واصطدم بها في الظلام، وتخيل أنها أمامه. في اللحظة تلك فتح الشبابيك. نزع منها ورق السوليفان الذي يخفي النور. سيغامر بيقظته هنا؛ فلا النوم هنا، ولا في أي مكان أتاه بالراحة. دخل المطبخ. أمسك أكبر سكين في المطبقية الخشبية. رفعه عاليًا متخيلًا رأس المرأة بين ذراعيه. لم يكن قد حز رقبة واحدة لدجاجة حتى من قبل. كان يحدج أمه وهي تمسك الدجاجة، أو البطة من جناحيها، ثم تقعد على كرسي خشبي واطئ، وتضغط بقدمها على أرجل الدجاجة المضمومة؛ حتى لا تفلت منها، وتجري، وجناحاها تحت

القدم الآخر. تأمره أن يمسك رقبتها من أعلى وهي تشدها من أسفل. بينما تحد نصل السكين بقطعة من الأسمنت وهي تبسمل وتُتَمتم باسم الله، وحلال الله أكبر، قبل أن تجز الرقبة بسرعة من الأمام، وتتركها معلقة من الخلف، فينهمر الدم. بجوارها صفيحة قديمة. تضعها على الطائر المذبوح؛ حتى لا يتقافز وهو يشخب دمًا؛ فيتناثر الدم في الدوار الصغير. كان يرمق ذلك برعب، وهو يتخيل ذلك الجسد الذي يتقافز في هيستيريا طارقًا كل جوانب الصفيحة قبل أن يهدأ، ويستكين أخيرًا لمصيره.. «أي شيء خطر على باله الآن؟ بالتأكيد يريد العودة إلى الحياة مرة أخرى؛ ليسمح لعقله أن يعمل. هو الكائن الذي بلا عقل كعقولنا، لكنه يحس بألم النهاية».

لم يستطع أن يفعل ذلك حتى بعد زواجه، كانت الزوجة تسخر منه، لدرجة أنه كاد أن يفعلها مرة ليكبح ضحكها وكلامها، ثم رأى نفسه في ومضة كالخاطر مطروحًا على الأرض والسكين على رقبته، تراجع حينها غير عابئ بسخريتها. تركها تفعل ذلك دائمًا وحدها. هو الآن يتخلى للمرة الأولى عن طبيعته في خياله، فيرفع نصل السكين ممسكًا بشعر المرأة الأبيض المهوش بين أصابعه اللاهثة، يطرحها أرضًا، ثم يحز رأسها بالسكين، تحاول الإفلات دون جدوى، يضغط بكل قوته وحنقه عليها، وعلى من يهابونها، ويقدسونها حتى فصل رأسها عن جسدها. كان حلم

يقظة غريبًا. أمسك نفسه واقعة بكل حواسها في تلك الرؤية الغريبة حتى إنه كان لا يزال متكئًا بقدمه على الأرض والسكين يتحرك ذهابًا وإيابًا. قام نافضًا من رأسه ما تخيله. أتى بممسحة الماء؛ ليمسح بها خيال الدم عن بلاط المطبخ النظيف، وعاد مرة أخرى إلى الكنبة. اللاب توب تتحرك على شاشته بعض صور الشاشة المؤقتة. ضغط زرًا، فبزغت أمامه ورقة بيضاء. أعلاها عنوان: «فُلْك النور». سيدع نفسه تخبر بكل ما يعن لها من ذكريات مختلطة بتجارب موجعة، وبدأ ينهل من نهر ذاكرته.

قام من مكانه بعد ساعتين؛ ليحرك مفاصله وأصابعه، ويصنع كوبًا من القهوة. حفظ ما كتبه، وأغلق الجهاز. جذبه شيء في الدولاب الذى كانت أبوابه الوسطى مواربة، اتجه إليه. حين فتحه صدمه رأسها. رأسها المقطوع على الضلفة العليا بينما الدم القاني اللزج يسيل منها على الأرض. كانت عيونها تضحك، وفمها يتحرك بسرعة. وبدلًا من أن يغلق الدولاب، ويجري وجد يده تنجذب إلى الرأس، فيمسكه، ويجري به صارخًا إلى الخارج. دخل الحجرة الأخرى وهو يبغي فتح باب الشقة، ثم دخل المطبخ. انزلقت قدماه على البلاط، حاول أن يصرخ، لكن حنجرته كانت محشوة بالتراب. سعى على أربع والرأس المقطوع تلاحقه حتى أخذ يطرق على باب الشقة من الداخل طرقات متلاحقة.. أخيرًا خرجت صرخة يظنها أنقذته من الرأس التي كانت تمشي نحوه بإصرار غريب.

اتصل به والداه وهما يتلهفان على سماع صوته ورؤيته. حكى لهما بعض تفاصيل الجريمة كما رُويت له، وكما شاهد بعض آثارها. أخبرهم أنه لا يخرج تقريبًا من البيت؛ فقد منحتهم الإدارة إجازة لثلاثة أيام، ثم مَدَّتها أسبوعًا كاملًا. لمَّح عمه «محمد عثمان» في نبرة صوته المحايدة، ونظرته المتوسلة رغبته في ألا يخبر أهله بما حدث له في الشقة. طمأنهم. ظلت أمه تلح في طلب عودته خلال هذا الأسبوع حتى تمر أموره بسلام، لكنه رفض متحججًا ببعض الأشياء التي كُلف بها في المدرسة، ويود أن ينجزها، وهو يدعوها ألا تقلق إطلاقًا.

هذا الأسبوع قد ينقله إلى بوابة أوسع من رواية جديدة. كأنها كانت متوارية في عقله حتى وجد نورًا يومض له، فاتخذ طريقه مثابرًا ومعاندًا في عرض بحر هائج بلا شُطآن. لن يستسلم لـ«فلك النور»، ولسطوتها، ولن يدع الناس هنا يستسلمون. هكذا اختار طريقه رغم ما فيه من خطورة. ظل يصوغ بعض العبارات حتى وجد مدخلًا للفصل الثاني في الرواية، والذكريات تمطره بالصور، والأصوات، والمشاعر. نسي ما حدث له مع طليقته، وبدأت المشاعر السلبية، والإحباط يغادرانه؛ ليحل محلهما شعور جارف بالتماسك، ورغم الرعب الذي يعيشه، ويعرف أنه ربما سيتكرر معه فقد آمن بأنه سينجح في مسعاه.

جاءه «سمير» في المساء؛ ليقص عليه آخر أخبار «الكور»،

ويسرد له عددًا من الأسماء التي قبضت عليها الشرطة أمس، وأول أمس تحت بند الاشتباه. تركه لحماسه حتى انتهى، ثم أخذه في طريقه، ولم يكن قد حكى لهم شيئًا مما رأى، بل ادعى أنه انزلق على البلاط، وخاف أن يكون قد كُسر.

- أنت تعرف الأستاذ سعيد عبد الغفار الله يرحمه.

نظر له بتفاجُئ، ثم نحى عينيه في اتجاهات شتى. حثه «أكرم» على الحديث عن كل ما يعرفه عنه:

- لو بُحت لك بما عندي فقد تتهمني بالكذب، وسِعة الخيال، كما أن أبي سيغضب.

- ومن سيخبر أباك بما حكيته لي؟ ثم إنني أكتب القصص والروايات. ألا تحب أن تخبرني بقصة قد تساعدني؟

- صحيح يا أستاذ؟

أومأ برأسه، فبزغ وميض الفرح في عيون «سمير» اللامعة:

- عدني ألا تسخر من حكايتي، وألا تقول لأبي أبدًا مهما حدث، ولا تسأله فيما سألتني.

- أعدك.

- كان في «الكُور» شاب من أبطال رياضة كمال الأجسام. وسيمًا شهمًا محبًا لكل جديد. أصحابه يتباهون بقوته، فلما يمرون في الحواري يفتعلون الخناقات مع شبابها أمام النسوة والبنات. لما حدث للأستاذ سعيد عبد الغفار ما أحزن الكُور كلها ذهب الشاب

بفورة جنون إلى حجرة فُلك النور، كان تلميذًا للأستاذ، وعلى علاقة ودود معه حين أصبح بطلًا رياضيًا. أخذ يدق بابها الخشبي بعصبية وهي لا ترد، فتعامل بيديه وقدميه مع حوائط حجرتها الخشبية حتى هدمها. خرجت المرأة مهوشة الشعر من الحارة الأخرى. أمسكها الشاب من ياقة جلبابها، ورفعها عاليًا مهددًا إياها بأنه لن يرحم شيخوختها، وسيغتصبها حتى يقتلها. كان يطلق أصواتًا قبيحة ودائرة الناس الذين تجمعوا حوله يشيرون ليديه قائلين: أنت تشتم جلبابًا حريميًا يا ماهر؟ لأن ماهر كان يظن أنه يرفع المرأة عاليًا، وبالتأكيد كان يراها، لكنها بالفعل لم تكن في قبضته، بل جلبابها، وألقاها ماهر، أو ألقى جلبابها على بقايا الأخشاب السوداء المكومة، ورحل فاردًا ذراعيه متحديًا كل من يلومه، أو يقف في طريقه.

كان «أكرم» يحدق إلى وجهه مباشرة؛ لينتظر أية علامة جسدية تكذب ما يقوله فمه. كأن يهرش جانب أنفه الأيسر بإصبعه الخنصر، أو يمسح مؤخرة رأسه بأصابع يده اليسرى، أو ينطلق مشروع ابتسامة على وجهه وهو يضبطها؛ كي لا يراها، لكنه لم يلمح أيًا من ذلك. يحكي «سمير» التفاصيل بروية، كأنه شاهد عليها كلها.

- وبعد ذلك؟

- نام الشاب، واستيقظ فرحًا. كأنه عريس في الصباح التالي لعُرسه، وقد ظفر باللذة الأولى حاكيًا لأصحابه ما رأى في المنام.

يصنع «سمير»، الطالب في الصف الثالث الثانوي، بعض الفواصل في حكايته؛ ليتنفس، أو ليأخذ رشفة من الشاي، وربما ليتأكد أن «أكرم» يتابعه، ويصدق كل كلمة يقولها.

- حكى ماهر لأصحابه في مركز الشباب عن الفتاة التي رافقته على فراشه طوال الليل في المنام. ليس كمثلها أنثى. مُهرة جامحة. شرهة. شعرها بحر من الذهب الصافي، وعيونها في خضار الزرع، ووجهها أحمر كزهور الربيع. رقبتها بيضاء كالرخام، ولدنة كالإسفنج. أما جسدها فقد كان مثالًا لجمال لا ينفد في كل تفاصيله. البسمة على وجهها زهرة، والتفاتتها رقص عود الورد؛ لإغراء نسمات الريح بالعودة مرة أخرى.. وفي اليوم الثاني أيضًا، حكى ما حكاه في اليوم الأول.. وهكذا لمدة ثلاثة أشهر متوالية. حتى إن جسده هزل من كثرة الجماع، وكاد يفقد حدة إبصاره. كان يقول إنه يرافقها أكثر من ثلاث، أو أربع مرات في اليوم والليلة الواحدة. إذا نام في أي وقت جاءته تدعوه إلى وليمتها المتجددة.. ذهب مترنحًا إلى حجرة المرأة، وكان نفر من أهل البلدة قد أعادوا بناء الحجرة مرة أخرى بنفس أخشابها، وموادها كما أمرتهم «فُلك النور». طرق الباب بهدوء كأنه متسول قائلًا للمرأة: أُقبِّل قدميك اتركيني في حالي، وترنح فعلًا أمام الباب حتى هوى، و«فُلك النور» تحدجه بنظرة متعالية، وترمق من تجمعوا حوله بتهديد. حملوه وألقوه في بيته.

- وهل وجد حلًا لذلك؟

- ذهب للشيوخ خارج البلدة؛ ليخلعوا من جسده تلك الجِنّية التي تدعوه إليها كلما نام وما قدروا. الشيوخ هنا أيضًا، والشيخ إبراهيم قرأ عليه لأكثر من شهر، وقرعه بالخيزرانة التي تخرج العفاريت من الجسد وما تركته الجِنية حتى أصيب ماهر هو الآخر بلوثة عقلية، فكنت تراه أحيانًا يمشي عاريًا في القرية وهو يضحك، وتصرخ البنات في الشارع؛ ليفلتن من منظره، وتمصمص النسوة شفاههن من وراء خصص الشبابيك، وينحيه الرجال بالعصا إذا ما اتجه نحوهم.. وأصيب بالصرع، ثم وجدوا جثته طافية على ترعة الجهمية ذات صباح.

- وهل فعلت مع الأستاذ سعيد عبد الغفار ذلك؟

- لا. فما يحكى لي شيء آخر. يقول الكبار إنه كان متهورًا، أضاع نفسه، وظن أنه صاحب عقل ورأي فذهب عقله، وتشتت رأيه.. ولكن لي سؤال يا أستاذ.

- تفضل.

- هل الأستاذ سعيد عبد الغفار قريب من أقربائك؟

اكتفى «أكرم» بهز رقبته بعلامة النفي، فلم يكن في احتياج إلى سؤاله «لماذا؟» بعدما سأله «حسين» من قبل عن الأمر ذاته.

ارتدى «أكرم» ملابس الخروج في الصباح. قابل «مدحت» في مدخل البلدة وهو عائد من شراء بعض حاجاته. كان واقفًا مع بعض أقرانه. حمل عنه بعض الأشياء، وعادا إلى الشقة. كانت عيناه تلتقطان صورًا مكبرة للأشياء. منذ ثلاثة أيام لم ينم جيدًا، والرعب الذى أتى به من تخوم المساكن الشعبية تضخم حتى صار وحشًا هلاميًا سد عليه منافذ الشقة، وطارده في الشوارع كلها. هاجم «مدحت» بلا أية مقدمات:

- لمَ لا تخرجون فُلك النور من الكُور؟

- لو أخرجناها ستعود في صور أخرى، وسيكون انتقامها أبشع مما يتحمله أحد.

- وكيف تواجهون انتقامها الآن؟

- بعون الله، بأشياء كثيرة: الرُقى، والتحصين، وحفظ القرآن، والمواظبة على أداء الفروض، وفك أعمال الربط، والسحر، والمس الذى تصنعه للناس.

- لكن لا يمكن أن تعيشوا بصورة أفضل وهذا الوباء حولكم.

- لا يمكن أن تتغير البلدة كلها إلا بتطبيق شرع الله، وبالحُكم الإسلامي الذى راح.

- مدحت! أخبرني بما حدث لأستاذنا سعيد عبد الغفار.

- أخي! لا أريدك أن تبتئس بما حدث لواحد اتخذ النهج العلماني شعارًا له.

خبأ «أكرم» إحساسه بالاستفزاز، وهدَّأ من نبرته:

- كيف؟

- كان يتقول كلامًا غريبًا. ليست هذه هي المشكلة. المصيبة أنه صنع أتباعًا لأفكاره الشاذة عن الدين، فكان يقول: إن أهل «الكُور» مغفلون جبناء؛ لأنهم يسمحون لمجرد امرأة دجالة بالتغرير بهم. بينما كل ما يحدث لهم من أمراض وعقد نفسية، أو أعراض جسدية أسبابها نفسية، وان الإنسان خُلق مُخيَّرًا لا مُسيَّرًا، ومصيره بيده. لا تؤثر به أحقاد الآخرين وعيونهم.

- هل في هذا الكلام مشكلة؟

اقشعر وجه «مدحت»، ضم حاجبيه فزعًا:

- أنت تقول هذا الكلام وتصدقه! لماذا إذًا كان الأستاذ سعيد يراها كلما نظر في مرآته ليلًا متخيلًا أنه يذبحها، فيرى رأسها ينز منه الدم في دولاب ملابسه؟! يحلم بأنه يشنقها، وحين يستيقظ يجدها معلقة فوقه في حبل سميك يتدلى من السقف ويلمس وجهها، ويحس بها موجودة معه في الظلام؟ بل إنها لم تغادره. لا لشيء إلا لأنه توعدها بالموت ذات مرة حين قابلته في الشارع. هل تنكر تلك الأشياء وقد ذكرت في القرآن والسُّنة؟!

كأن الساعة توقفت، وكأن شعر رأس «أكرم» تحول إلى أسلاك كهربائية مغلقة في دائرة. انتفض جسده وتزعزعت روحه حتى كاد يسقط من دوار مفاجئ. سأل:

- حقيقي هذا الكلام! والكلام عن ماهر أيضًا رافع الأثقال، والأخوين اللذين اقتتلا أمام بيتها بعدما أوقعت بينهما العداوة؟!

رد «مدحت» بنبرة انتصار:

- نعم، أرأيت! لكن الأستاذ سعيد عبد الغفار لم يتوسل إليها؛ ليموت ميتة رحيمة، بل ظل يمر بجوار حجرتها صارخًا: «لن أنهزم»، ووُجد بعد أشهر مُعلقًا من رقبته في بيته.. الميت لا تجوز على روحه إلا الرحمة، لكنه جُن وانتحر. أنا جئت معك لما هو أهم. نحن نريد منك مساعدتنا في بيت المال. أنت وجه غير مألوف، لست ممن رآهم الناس في الانتخابات. ستجلس في الشقة الأرضية التي استأجرناها؛ لتأخذ من الناس ما يتبرعون به لبعض الفقراء والأرامل المسجلة أسماؤهم معنا.

قال «أكرم» غير آبه بصدمة «مدحت» فيه:

- أنا خارج كل أساليبكم العقيمة يا «مدحت»، تلك التي تفيد كل نظام فاسد أكثر مما تفضحه وتُحرّض عليه.

ستغيض البسمة من وجهه حين يرى صديقه القديم مرة أخرى، وسوف يتنحى عن طريقه؛ كي لا يندفع إلى إلقاء السلام، حتى على زميل قديم، وضيف غريب في البلدة.

بالأمس رآها في المرآة أمامه. كاد يصرخ، أمسك نفسه في اللحظة الأخيرة؛ لأنه يحس أنها تطلب صراخه وتوسله؛ لتنجح خططها. نام ساعة، وتحسس جسدًا بجواره. حين فزع من نومه رآها تجلس متربعة بجانبه على الفراش. كاد قلبه أن يتوقف، لكنه رمى البطانية عن جسده، وجرى إلى الحجرة الأخرى. فتح باب البلكونة، والنار تلم بجسده وتزيدها تأججًا تيارات الهواء البارد وهو ينظر وراءه خوفًا من أن تأتي، فيضطر للقفز من البلكونة إلى الشارع. في الليلة الفائتة كان قد حقق شبه انتصار على ألاعيبها، لكنه فكر في الثمن الغالي الذي سيدفعه من حياته كلها سجينًا لها. وهو ما جاء إلى هنا إلا مدفوعًا برغبة داخلية في الخلاص من مخاوفه كلها.

أخبر الناظر أن بعض الناس أبلغوه بأن معلمه الجديد يتردد على امرأة مشبوهة، وأنه لا يزال على علاقة صداقة بـ«مدحت» المشبوه بالانتماء للجماعات الدينية، وسأله الناظر:

- أية علاقة فيهما تُموّه بها على الأخرى؟

- هذا ظلم وافتراء. علاقتي بمدحت انتهت رغم أنها تخصني وحدي، والمرأة التي كنت أقابلها أمس دفعني إليها صاحب قديم؛ لأسألها في بعض الأشياء.

- ولِمَ تضع نفسك في محل الشبهات؟

- رواية جديدة أكتبها.

قال الناظر:

- يا أستاذ! كلها شهور وتغادر من هنا، فاحرص على ملفك الوظيفي النظيف واكتب بعد ذلك ما تشاء من روايات وتعاويذ.

كاد «أكرم» يوجه إليه لكمة تنهي حياته، وتضع حدًا لذلك الكابوس الذى يحيط به. سمع تلك الكلمة مرارًا من أبيه وأمه حين عَرفا بأنه يكتب. كان قد أطلعهما على بعض قصصه المنشورة في الجرائد، ففرحوا وسألوه عن العائد المادي لكل ذلك، فقال لهم: «لا شيء الآن، دعوني للاجتهاد في عملي أولًا وبعد ذلك نبحث عن النتائج التي ربما لا تكون كلها مادية».

زوجته هى الأخرى خيَّرته بأن يكون كباقي الناس الطبيعيين، وإلا ستتركه، فاختار طريقه. كانت الأمور أصلًا قد تعقدت وانسدت كل الطرق الأخرى معها، ولو تحول كالناس الطبيعيين في نظرها كانا أيضًا سينفصلان. أحس أنها مسألة وقت لا أكثر.

زملاء كثر سوى «كريم راشد» الوحيد الذى كان يحفزه دائمًا على الكتابة والتجربة وكانا يتبادلان الكتب الجيدة، ويتناقشان في الفن وان اختلفت قناعاتهما الأخرى في الحياة الواقعية نفسها عن بعضهما، كان الصديق الأقرب إليه. يحرص على عدم التطرق لأي أمر يخالف الدين من وجهة نظره، بينما كان «أكرم» يرى أن أصل كل مشاكل وتعقيدات الحياة هنا هي رؤية الناس للدين نفسه، وأن تلك القشرة التي تغلف الناس هي ما تحجب عنهم نور الشمس، وعذوبة المطر، وخيال الريح. رغم ذلك

ظلا على صداقتهما وإخلاصهما. كان يخوفه أحيانًا من اتجاهه إلى التجديف، لكن «أكرم» لم يخف، وها هو الآن يكتب روايته الجديدة: «فُلك النور» بشكل متواصل لدرجة أنه لو أخبره الآن أنه يكتب لثلاث ساعات متوالية كل يوم دون انقطاع لما صدق؛ لأن الواحد منهما كان يصوغ نصًا واحدًا كل عدة أشهر بصعوبة، وحين يقابلان باقي أصحابهما ممن يمارسون الكتابة الأدبية يعلن كل منهما عن قصة جديدة بنوع من الظفر، وكأنه اصطاد ذئبًا من ذيله.

تنهمر الذكريات على رأسه متقاطعة مع شخصيات من هنا وهناك. كل شخصية تحوي داخلها ثلاث على الأقل ممن يعرفهم. كانت سيارات الشرطة تحمل كل ليلة مزيدًا من الأشخاص المتورطين في القضية التي كانت لسان حال الجميع، ومرة ذهب إلى المطبخ؛ ليلتهم عشاءه، لكن حين عاد إلى اللاب توب، وجلسته المتوترة رأى صورتها على الشاشة. حين ذاك أطاح بالجهاز من أمامه، فانكسرت شاشته على البلاط. أمسك رأسه حانقًا: ضاع عمل أسبوعين في لحظة، وعاد الرعب مرة أخرى. لن يكون كـ «ماهر»، أو الأستاذ «سعيد عبد الغفار». سينتهي من تلك المرأة ويستريح. كان الغضب يشعل الحرائق في رأسه. ذهب إلى المطبخ؛ ليمسك سكينًا، ويذهب إليها، فيطفئ النيران التي تحرق خلاياه، وتكاد أن تضع الجنون على طريقه.

ألقى السكين مرة أخرى؛ كي لا تتكرر حكاية الرأس المقطوع. أتى بحبل سميك؛ ليشنقها. تذكر حكايات المرأة المدلاة من السقف في حجرة نوم الأستاذ «سعيد عبد الغفار». كأنه هو في زمن آخر، لكنه لن يستسلم أبدًا لمصيرهم. لديه عقله وإرادته وسينتصر، هكذا شد من أزر نفسه.

حَثَّ الخطى في اتجاه حجرتها الخشبية، لما اقترب وجد بابها مواربًا. كأنه إعلان للتحدي، ودعوة للدخول. تنتظره المرأة لا بد. نظر إلى الداخل، فرأى كهفًا لا نهاية له. مشى، دار في الشارع بينما يفكر أنه لو عاد إلى شقته دون أن ينجز ما يريد فقد يحدث له ما حدث لهم. ليس أمامه سوى المواجهة؛ ليخيفها ويهددها على الأقل، ثم يعود. ما يفعله هو خطوة عظيمة. لعل نفس الإحساس الذي راوده الآن قد راود «ماهر»، وأستاذه «سعيد عبد الغفار»، ولعل مجنون القرية القديم كان ضحية من ضحاياها، لكنهم لم يتخذوا خطوة كما ينتوي هو الآن. قال لنفسه: «إذا كنتَ ستحاربها بالعقل فلماذا تلجأ لهذه الأساليب؟». كان اعتقاده هو ما يقوده إلى هناك لا قدماه. تذكر العذاب، والرعب الذي عاش أسيرًا له. «الكُور» نائمة. ليس إلا خطوات ضئيلة كل عدة دقائق. دفع الباب في فورة حماس، ودخل مُنحيًا الستارة. هاجمته الرائحة الكريهة. فكر أن يخرج جريًا إلى الشارع؛ ليلتقط أنفاسه، لكنه أدرك أن تلك حيلة من حيلها، ولا بد أنها تقرأه الآن. كان جسدها نائمًا

على كنبة على جانبها الأيسر. وجهها باتجاه الحائط، وظهرها له. أقعَى جالسًا، ومرر الحبل من وراء رقبتها حتى تناوله في يده الأخرى. لفه بقوة وضراوة. ارتعد الجسد أمامه. قامت تدفعه بيديها، وعيونها التي تحدق فيه بفزع وشراسة. كادت يده تتهاوى، فأمسك نقطة التقاء طرفي الحبل بيد واحدة، وتناول حجرًا كبيرًا من الأرض. أخذ يدق به رأسها حتى بدأ دمها يسيل. أغلق فمها، وأنفها بقوة. امتطى جسدها وهو يكز بيده، ويعصر الحبل حول رقبتها، حتى تهاوت ساكنة والدم يسيل من جبهتها سريعًا مخيفًا. وضع يده على صدرها، فلم يحس أي نبض. يداه كانتا ترتجفان؛ لذلك لم يأمن لإحساسهما بانعدام النَفَس. وضع مخدة على وجهها، وجلس عليها بركبته. لم تكن هناك أية حركة مقاومة. أخذ الحبل في يده، وألقى الحجر وسط كومة الأوراق التي لا يعرف إلى الآن ماذا تفعل بها.. راقب الشارع من الداخل. لما تلاشت الخطوات خرج، وأغلق الباب وراءه.

ها هو مستيقظ طوال الليل، لم يرَ إلا صورتها الأخيرة الهامدة أمامه. فتح الدولاب.. أغلق النور وتمدد. أغلق عيونه، وفتحها.. نام. لم يزره حلم أو كابوس، لكن ملحًا بحلقه بدأ يصاعد في اليوم التالي، وصاحبت قلبه ارتجافة، وبَهُت إحساسه بأطرافه. أما عقله فاشتعلت به الحرائق. قيُدهُ إلى فراشه وجع هائل، وأيقظته من سهاده صرخات متوالية. لما كانت الحارة كلها

قد استيقظت فقد قابله لدى نزوله على السلالم «محمد عثمان» وهو يخبط كفيه على شعره الخشن:

- «إلحق!» فُلك النور. الناس تقول إنها ماتت.. قُتلت.

قال متمالكًا أعصابه:

- ألم تشبع الكُور من الدم؟

تركه «محمد عثمان» وخرج من الباب محني الظهر مترنحًا من المفاجأة وهو وراءه بخطوات، يحاول أن يدخل المشهد دون أن يلفت الانتباه إلى اضطرابه. كانت النسوة يتقابلن فزعات، ويدرن مرة أخرى. بعضهن كن خرجن بقمصان بيت نصف كم، وعُدن ليرتدين عباءات سوداء. الحارة، وناس من أهل الحوارى الأخرى تجمعوا في الشارع الجانبي الصغير، وبدأ الزحام يزداد حتى إن حجز مكان بالقرب من محيط الحجرة الخشبية من ناحيتين بات إنجازًا.. جاء نقيب الشرطة في عربة «البوكس» يتقدمه ثلاثة من خفر القرية ببنادقهم، أزاحوا الناس جانبًا. دخل ضابط نقطة الشرطة. جاءت عربة بيضاء حكومية هبط منها اثنان: واحد بـ «بدلة» سوداء كاملة، وآخر بقميص وبنطال، وبعض الأوراق في يده، وكاميرا على صدره، ثم جاءت الإسعاف وأخذتها.

وقف مجموعة من الشباب الملتحي أمام شيخ الجامع الذى أعلن صلاة الغائب على «فُلك النور»؛ لأنها ستأتي من الإسعاف وقد غُسلت وكُفنت، وصُلّي عليها، وهم لا يطمئنون إلى صلاة

المستشفيات. دعاهم الشيخ إلى التروي: فالنبي كان يصلي على بعض من يظنهم فُسَاقًا. قال بعضهم إنها كافرة. اشتعلت «خناقة» تردد صداها في الأجواء. قاد «مدحت» و«برهومة» نفرًا من أتباع الشيخ في الخارج، تحدثوا غير بعيد من «أكرم» الحريص على التقاط كل شيء، ثم خرجوا برأي جديد: إن المرأة التي قُتلت ليست «فُلك النور»، بل شهيدة دعاها حظها المُقدُر إلى البيات في حجرتها هذا اليوم.

لا يعرف كيف صدق الناس ذلك في سرعة عجيبة، بل وانتظموا لإقامة صلاة الغائب عليها أمام المسجد وهم يلبسون أحذيتهم تيمنًا بالسُنة كما أعلن «برهومة» الذي أَمَّ الناس في صلاتهم.

تابع «أكرم» ما أطلق عليها في نفسه: «المهزلة الكاملة». لم يستطع الانفراد بنفسه في الشقة؛ كي لا يلتهمه هذا الإحساس الممض بالضياع. لما انتهوا من الصلاة أتت سيارة الإسعاف يسبقها جمع من الأطفال يصيحون، وجرت السيارة مسرعة والناس خلفها. لم يكن لـ «فُلك النور» مقبرة في القرية؛ فقد ظنوا بالتأكيد، أنها مخلدة كـ«إبليس»، وأنها في بعض الأحيان الأخرى «إبليس» نفسه ممسوخًا في ثوب امرأة جميلة.

عركة أخرى كادت تنشب في المقابر لولا أن «برهومة» ومن ورائه «مدحت» قد أعلنا أن تلك الشهيدة البديلة لا بد أن تُدفن حالًا في مقبرة جاهزة.. خطب في جموع المُشيّعين عن الحظ

العاثر الذى جعلها ترقد في فِراش «فلك النور» هذا اليوم. هكذا دفنوا الجثة في رعاية الشرطة التي حضرت الجنازة بكثافة، ثم رحلوا؛ ليداهم رجالها وعرباتها البيوت في نفس الليلة، وتبدأ تحقيقات جديدة.

- أين كنت ساعة ارتكاب الجريمة؟

- كنتُ نائمًا، وجريتُ في الصباح مع الناس.

- هل تعرف كيف قُتلت المرأة؟

- لا أعرف.

- وجدنا لاب توب مكسورًا في شقتك. من فعل ذلك؟

- سقط مني وأنا أجري فزعًا في الظلام، وللأسف ضاعت أشيائي.

- ما هذه الأشياء؟ وكيف عرفت أنها ضاعت؟

- بعض الصور، والكتب، والقصص، والأفلام، والمسرحيات، والأغاني.. وضاعت؛ لأنكم صادرتموه.

- لم نصادره. اعذرنا. نحن نفتش في كل الأشياء لدى أهل الحارة كلهم: أصحاب البيوت، والسكان.. ومن الغريب أن القرص الصلب اختل ما إن وقع الجهاز ولم يعد صالحًا للاستعمال.

أخذ نَفَسًا طويلًا. راقب المحقق اختلاجاته. أعطاه بطاقته الشخصية.

- تذكَّر! أهل الحارة كلهم تحت المراقبة، بل أهل البلدة كلها.

واعذرنا؛ لاستدعائك أنت الغريب لأنه حدثت كل تلك الكوارث في الأيام الأولى لوجودك هنا.

هزَّ «أكرم» رقبته بشعور المتفهم، وخرج، ليفاجئه الناظر في اليوم التالي:

- آسف يا أستاذ أكرم. تم رفع مذكرة بشأن ترددك على بيت امرأة ذات سمعة سيئة في الكُور.

- جنون، واتهام بالباطل. قلتُ لحضرتك كنت أسألها عن بعض الأشياء.

- اعذرني. لا أحد هنا يعرف هذا الأسلوب، ولا أحد يصدقه، وعلاقتك بـ«مدحت»، و«إبراهيم» تم الكلام فيها وسط التحقيق، وعدم تعاونك معنا يا أستاذ ساهم، ليس مني، في إيغار الصدور عليك.. أتوقع أن لا تنتهي المشاكل بسهولة.. لماذا جئت بالضبط؟!

في مدرسة «الأمل» كانت هيئة التدريس مقسمة إلى مجموعات. كل مجموعة هي أصلًا شركة صغيرة للدروس الخصوصية، أو العمل الحُر في أحد المتاجر، أو السمسرة في العقارات والأراضي الزراعية، ولكل منها تابع من الإداريين أو العمال، بينما أحب أن يصير وحيدًا، وحُرًا فجلب على نفسه المشاكل. تصور أنه سيتحملها بصدر رحب، وقدِم إلى هنا؛ ليجد صورة طبق الأصل مما تركه هناك. يتمزق صدره لوعًا كلما ارتسمت بخاطره صورة «فُلك النور»، أو تحدَّث أحد في تفاصيل الجريمة التي تكتشف

بعض خيوطها يومًا وراء يوم. علم بالقبض على بعض العاطلين على خلفية الحادث، لكنهم لن يعثروا على دليل واحد يدين أحدهم.

لم يتحمل ذلك الشعور الطاغي بالانسحاق. حتى وهو جالس مع «محمد عثمان»، أو ساهر مع «سمير» ابنه الذي كان ينقل له بعض ما يقال في «الكُور». أدرك قبل أن يقول له أي شيء أن أكثر المفجوعين في رحيلها هم «برهومة»، و«مدحت»، ومن هم على شاكلتهما. إنهم يكذبون ويصدقون أنفسهم، ولو أنهم في الأيام القادمة سيبحثون عن شبيهة لها في القرى والنجوع؛ ليأتوا بها هنا، فتروج بضاعتهم مرة أخرى في فك السحر والربط واخراج العفاريت، وجرّ الناس إلى طريقهم بالابتزاز والترهيب.

لقد رجّ زلزال موت «فلك النور» القرية كلها من الأعماق.

كان على أعتاب الجنون. بكى طويلًا في الليل؛ لأنه لا يستطيع إخماد كل الحرائق في رأسه، ثم تأتيه نوبات من السعادة وتقول له نفسه: لقد فعلت شيئًا عظيمًا، ثم تنتهبه آلام الهواجس والهذيان فيقول لنفسه: «ماذا فعلت؟! لو أنك خيرت بين أن تتحطم أحلامك وقناعاتك وبين ما فعلت الآن فماذا تختار؟»

وحين لا يستطيع تحمل آلام المشهد الماثل أمام عينيه يواسي نفسه قائلًا: «إذا كانت الدنيا هي نهاية المطاف؛ فلم الخوف من ارتكاب الجريمة؟!»

ثم تهاوى راقدًا على الفراش لبضعة أيام، يرى الأشياء الصغيرة تتضخم، وتهوي على رأسه فتسحقها، ينظر للناس من الضفة الأخرى للحياة. كأنه يُصنفهم: هذا مجرم لا شفاء لآلامه، وهذا بريء لن تتحقق أحلامه، ولن تنهزم مخاوفه. من أين ينبع الإحساس بالألم ليمزق صدره إلى الأبد؟ ولِمَ تنبثق تلك الأسئلة التي لا يجد إجابة لها الآن: «ما الله؟ ما الإنسان؟»

زار قبر أستاذه «سعيد عبد الغفار» هامسًا له: «استرح أخيرًا؛ فقد جاء من يكمل مسيرتك متقبلًا النتيجة كلها».

تلقى اتصالًا مطولًا من أبيه في المساء يخبره أنه قد ذهب إلى الأستاذ «ياسر»، وناظر المدرسة، وأن مدير الإدارة أخبرهم بعدما عرض أبوه ظروفه أمامهم بإمكان عودته مرة أخرى إن هو اعتذر، وأخذ إقرارًا على نفسه بعدم التسبب في المشاكل مرة أخرى ولو بشكل عُرفي بينه وبين زملائه في المدرسة.

يكره مكرهم وغباءهم، لكنه مضطر لتأجيل بعض المعارك قليلًا؛ حتى ينجو من ذلك الإحساس الفظيع بالضياع. يجيء «محمد عثمان» وزوجه وأولاده للجلوس معه أغلب الأوقات. طلب الرجل منه بشكل فيه كثير من الشفقة أن يذهب إلى طبيب؛ ليكتب له شيئًا لمعالجة الإغماء والاكتئاب. بحسم قال إنه يعرف علاج نفسه.. والحقيقة أن يحس أنه قد يذهب مخلفًا وراءه العالم؛ في سبيل الخلاص من الكابوس الذي يفتك به.

ذات يوم قرر أن يذهب بنفسه إلى الشرطة؛ ليخبرهم بكل شيء، وتذكر أنه مهما حدث فلا يمكن لشيء في العالم كله أن يطمئنه من الداخل. لن يذهب إليهم، ولا من هنا إلا بعد شفائه التام. هكذا أخذ قراره، وهو ذاهب إلى جوار حجرتها المفتوحة بتحدٍ، رأى وجهًا عابسًا لامرأة تشبهها وهي تحدق فيه بنظرة متوعدة. هنا انفلق النهار إلى نصفين، فكان ظلمة ونورًا في وقت واحد، تطوح على الخيط الرفيع بين الاثنين، بشعره المهوش، وذقنه النابتة، وعيونه الجاحظة، وملابسه غير المهندمة صرخ باتجاهها، لكن لم يُجبه سوى الأطفال الذين ارتفعت هتافاتهم، وصياحهم وراءه وهم يحملون قطع الطوب، والزلط، والألسن الحارقة. كيف انقضت الأيام والليالي عليه هنا دون أن يدري؟! ولم انقطعت الصلة فجأة بينه وبين الجميع؟! لم يكن ثمَّ وقت للتفكير، واقفًا والمطاردون وراءه. أطلق ساقيه للريح باتجاه قبر أستاذه.

* * *

"فُلك النور" كما هي منذ اثنين وعشرين عامًا، ربما تغيّرت معالم وجهها، وصار شعرها شمسًا ساطعة فوق رأسها المدور، تخفيه الآن تحت "طَرحة" سوداء محبوكة، وجهها الأبيض المليء بالتجاعيد أكّد له، وعيونها الواسعة المهدّدة لم تنزل من فوق جسده، لكن أصابع حاسمة أمسكت برُسغه وأنقذته في الوقت المناسب قبل أن يهوي على الأرض من قوة المفاجأة غير السارة.

تصميم الغلاف: أحمد شوقي

المسابقة الأدبية المركزية
الفائزون
2019 - 2020

الهيئة العامة لقصور الثقافة
الثمن: 6 جنيهات